

خيرى عبد الجواد

يومية هروب

رواية



يومية شروب
رواية

خيرى عبد الجواد

لوحة الغلاف : حلمى التونى

خطوط الغلاف : حامد العوينى

الطبعة العربية الأولى : مارس ١٩٩٩

رقم الإيداع : ٩٩/١٨٥٠

الترقيم الدولى : I.S.B.N. 977-291-127-2



السلسلة الأدبية

رئيس المركز
علي عبد الحميد

مدير المركز
محمود عبد الحميد

المشرف العام
علي السلسلة الأدبية
خيرى عبد الجواد

الجمع والصف الإلكتروني
مركز الحضارة العربية
تنفيذ : شريف على

٤ ش العلمين عمارات الأوقاف
ميدان الكيت كات
تليفاكس : ٣٤٤٨٣٦٨

الفصل الأول

فى ظهيرة يوم حار

كان أول ضوء للنهار يتسلل من الشباك الصغير الوحيد ذى القضبان الملفوفة بالسلك المخرم ، واهناً لا يكاد يبده الحلقة الداكنة بالداخل ، بينما الشمعة التاسعة أو العاشرة المصقوفة بالجدار المهيب تجود بآخر ضوء لها فتراقص ذؤابتها قبل أن تغرق فى السائل الشمعى وتنطفئ .

نهض الجميع يفركون عيونهم من نوم قلق بعد أن سمعوا النداء الذى أطلقه الجندى الواقف على باب الزنزانة : انتباه يا بغل منك له .

تململ هو فى وقفته وأخذ ينقل ثقل جسده من ساق إلى أخرى . كان أول من لمح الجندى على باب الزنزانة من وقفته خلف شبك صغير داخل حمام يطل على الطرفة الداخلية للقسم ، ظل واقفاً طوال الليل ومنذ مجيئه ؛ فقط ليستطيع التنفس ، حين انفتح الباب ودخل ، دهمته رائحة نانة وعفونة فكاد يتقيأ وشعر بخوف مفاجئ لرؤية الأجساد العارية المرصوفة على الأرض ، كاد يقع على أحدهم فضحكوا جميعاً وقالوا فى نفس واحد : اسم الله . أشار له آخر بالجلوس بجانبه وأفسح له مكاناً فجلس مستنداً بظهره إلى الحائط ، قال له : نورت . رسم على شفتيه ابتسامة وهز رأسه ، وبلا مقدمات وجد يده تتحسس جسده وجيوبه فنظر إليه مستفسراً ، زغر الآخر متحدباً : عاوز تقعد هنا ومحدث بلطشك ، هات خمسة جنيه . شعر بالخوف فجأة وهو ينظر إليه ، كان ضخماً وأصلعاً وله سمات المجرمين ، كان يرتدى (كُلْتَا) فقط ، باقى جسده كان عارياً وندياه ضخمان ومتهدلان .

أخرج من جيبه خمسة جنيهات أعطاها له دون أن يتكلم ، حفلات الاستقبال فى الزنازين سمع عنها كثيراً ، ولو أن أحداً صفعه على وجهه فلن يتحمل الصفعة وربما مات فيها . قرفص ساقيه ووضع ذراعيه حولهما ، وأسند رأسه إلى الحائط اللزج بفعل العرق وسناج الشمع الذى كسا الحائط وأحال لونه إلى الأسود المغبر . كانت الرائحة لا تطاق ، والساعة لم تتجاوز العاشرة مساءً فى ليل يوليه الساخن ، ولم يمض على مجيئه سوى ثلاث ساعات فقه لم قضائها فى حجرة المباحث . أحس بضيق فى نفسه فقام وسار حيث الحمام ، أراد أن يغمر رأسه بالماء الذى رآه يتدفق بحرية من حنفية لا تغلق ، كانت المفاجأة الكبرى حين وجد للحمام شباكاً صغيراً ، ووجد أحدهم يقف خلفه ، للحظة شعر أن حياته معلقة بهذا الشباك ، تقدم من الواقف وقال له : تسمح لى أقف مكانك شوية . نظر إليه قليلاً قبل أن ينطق : بخمسة جنيه . لم يفكر ، أخرج من جيبه وأعطاه فترك الشباك . أخذ نفساً عميقاً فثسعر بالراحه ، لم يلق بالآ بالماء المتدفق الذى أغرق قدميه ، فقط تشعلق بحديد الشباك ، وأخذ يتنفس هواءً حراً حتى الصباح .

(2)

انفتح الباب الحديد ، وأخذوا يخرجون واحداً واحداً عند سماع الاسم ، جلسوا فى الممر أمام الزنانه ، بينما انفتحت الزنانه الأخرى ، وأخذت النساء يخرجن هن أيضاً فى صف واحد كان عدده أقل كثيراً من الرجال . كانت الزنازين مقامة منفصلة عن قسم الشرطة بالقرب من مدخله ، ولها مدخل واحد عبارة عن ممر ضيق وقف فيه صفاً الرجال والنساء ، تعتمد أن

تكون جلسته فى أول الصف حتى يستطيع مد بصره خارج الممر فىرى الناس فى الخارج ، أخذ يبحث ببصره عنها حتى وجدها فاطمأن ، كانت جالسة فى مدخل القسم بالقرب من الممر وقد ارتدت جونتلة سوداء وبلوزة رمادية بينما ظهر وجهها مجهداً دون طلاء ، أشارت له مبتسمة فهز رأسه وانشغل بمتابعة ما يجرى حوله ، جاء عامل البوفيه ومد له يده بكوب شاي وكعكة وأشار إليها ، ألقى نظرة ناحيتها فهزت رأسها ، شرع فى تناول فطوره ، ولمحها هى أيضاً تفعل مثله . بعد أن انتهى أخرج سيجارة أشعلها وتأمل ما حوله ، كان طابور النساء قد بدأ حديثاً مع الرجال ، بينما انشغل الضابط النوباتجى بعد قوائم الذاهين إلى المديرية للكشف عن صحيفة سوابق كل منهم ، وأخذت شمس يوليه تسلط جحيمها على المكان ، مسح عرقه بكم قميصه وشعر بتنميلة ساقيه فافترش الأرض ومد رجله أمامه ، ولمح فتاة تفعل نفس الشئ فبانت ساقها اليمنى بيضاء منتوفة الشعر قبل أن تضعها تحت مؤخرتها ، أخرجت ثديها بيدها ، كان صغيراً منتصباً ومدوراً بينما ظهرت نبة حمراء مشرعة فى الهواء لبرهة قبل أن تغيب فى فم طفلها المضموم إلى صدرها ، كانت أجمل من فى طابور النساء وأصغرهن ، بيضاء ممثلة قليلاً فى بلوزتها الحمراء ذات الصدر المكشوف ، وجونلتها السوداء المحبوكة أظهرت خطوط الساقين والفخذين . أحست بنظراته فجأوبته ونظرت هى أيضاً إليه وقد أعطته ابتسامة مغوية ، ارتبك وارتد ببصره إلى فناء القسم وإلى حيث تجلس زوجته ، هذا هو يومه الثانى الذى يقضيه مع هؤلاء البشر ، أكثر من ستين رجلاً فى حجرة لا تزيد عن مترين فى مترين ، ودورة مياه مسدودة ، وحنفية مياه تغرق المكان بمياه لها رائحة كريهة حاملة

مخلفات الأمعاء وبول متخمّر .

وهو يومه الثانى الذى يقضيه بعيداً عن زوجته ولم يمض على زواجهما إلا أيام قليلة ، وهما هى ذى تمضى شهر عسلها متنقلة خلفه بين القسم والمديرية .

هبوا واقفين عند سماع النداء ، واصطفوا ؛ كل اثنين وراء بعضهما ، تراجع هو للوراء متسللاً حتى أصبح فى آخر الطابور ، وبدأ المخبرون يضعون الكلابشات فى الأيدي ، كل اثنين معاً ؛ شمال أحدهما مع يمين الآخر ، حين أتى الدور عليه لم يبق معه أحد يزامله فى الأصفاد . وبدأ أن عدد الكلابشات كان قليلاً مما أغضب أحد المخبرين فزق : عاوز كلابش لوحك يا روح أمك ؟! وأخذ يجول بعينه بحثاً عنم يزامله ، لحظتها ، وكأنها كانت ترقب ما يحدث ، هبت واقفة وقبل أن يقع طفلها التقطته وجرت ملتصقة به : حطنى معاه والنبي يا حضرة الصول ، أنا أزامله . فرقع بشفتيه وهو يهز رأسه : الطيور على أشكالها ، مدى إيدك يا مرّة ، وأنت يالّه . وللحظة ، شعر بتوتر عندما لامس جسدها جسده ، بينما هى ابتسمت وهى تمد يدها الشمال بينما رفعت طفلها قريباً من كتفها ، وقالت : كده أحسن لى ولك ، هاريحك .

جاء أحد المخبرين ولمّ من كل واحد ثلاثة جنيهاً مصاري ف عربية الميكرو باص التى سوف تنقلهم إلى المديرية ، غاب قليلاً ثم عاد معلناً ذهابهم إلى المديرية مشياً على الأقدام لأنه لا توجد عربية محترمة تشيل هذه الزبالة البشرية كما قال .

كانت الشمس تفتح⁸ ناراً حين تحرك الركب ، وكان الرجال والنساء
يمشون في طابورين وحول أيديهم القيود الحديدية ، وكانت المرأة الوحيدة في
صفوف الرجال مقيدة به ، ولأنها شعرت بأحدهم يتحسس مؤخرتها ، فقد
قالت له : تمشى في آخر الصف أحسن . ولم يشعر بهما العساكر والمخبرون
الذين يمسكون العصي والبنادق على الجانبين وهما يقفان ويتأخران قليلاً
حتى أصبحا في آخر الصف . قبل أن يتحرك الركب أرادت زوجته الذهاب
معهم ، لكنه أشار لها نظرة عتاب ولسان حاله يقول لها : هل هذا وقت
الغيرة . يعلم أن سبع سنوات من الحب المتبادل والتي توجت بزواج دام عدة
أيام هو ما جعلها تنظر إليه بعين الغيرة وامرأة تمسك بيده . انطلقوا مجتازين
شريط السكة الحديد حتى وصلوا بداية شارع الجامعة ، ورأى العربات حين
تجتازهم تهديء من سرعتها وتنظر إليهم ، عدا فتيات وفتيان الجامعة فإنهم
كانوا ينظرون إليه هو فقط دون الآخرين ، أو هكذا شعر فأخذ يتصبب عرقاً ،
ومد يده الحرة فمسحه ، وشعر بحاجته إلى سيجارة فأشار لها أن تمد يدها
في جيبه ناحيتها ، أرادت معاينته فوضعت يدها في جيبه وقبل أن تمسك علبة
السجائر والولاعة انجذبت يدها قليلاً إلى عضوه فانتصب ، وانتفض هو
ونظر إليها ، فضحكت وهي تعطيه السجائر : لازم تاخذ عنواني وأنا
هاروذك ، إلا بالحق ما قولتليش ، اسمك إيه يا خويا ؟ أشعل سيجارة وفكر
في إعطائها اسمه الحقيقي ، لكنه تراجع فجأة ، وقال : محمد ، اسمي
محمد . عاشت الأسامي يا خويا ، أنا بقى اسمي زينب وشهرتى زوزو ،
عنواني مايتوهش . وصفت عنوانها بدقة شديدة وبالفعل فإنه لو أراد

الذهاب إليها فسوف يصل بسهولة . منهم لله ولاد الأبالسة ، كنت شغالة وزى الفل ، لكنهم قبضوا عليا متلبسة . قال من خلال دخان سيجارته : أول مرة ؟ عدلت من طفلها النائم على كتفها . وقالت : أول مرة وحياتك ، مش عاوزين يسيبوا الناس فى حالها ، منهم لله .

كان الركب قد وصل إلى منتصف الطريق فعبروا تقاطع شارع الجامعة مع شارع الجزيرة والدقى ، وقد تحولوا إلى طابور واحد طويل يلهث من شدة الحر والتعب ، كذلك كان الجنود والمخبرون يشعرون بالتعب والظما ، فطلبوا منهم ، وهم يلهثون ، أن يسيروا ببطء . أصبح هو وهى - بعد أن انضم النساء إلى طابور الرجال - الحد الفاصل بين الرجال والنساء ، فجأة سأله : وأنت يا خويا ، جئى فى إيه ؟ لم يكن عنده نية للكلام ، ورجاها فى سره أن تتركه لحاله ، وشعر بالزهق وهو يجيب سؤالها : جيش ، هروب من الجيش . ولابد أنها أحسست به فاكثفت بهز رأسها ولم تعلق . انتهوا من الشارع واتجهوا إلى مبنى المديرية ، كان أمام المبنى حاجز حديدى رفعه أحد الجنود أمام المبنى ، فدخلوا من باب جانبي حيث مر يفضى إلى ساحة حولها شبابيك كثيرة أشاروا لهم بالجلوس حتى يعطوا أسماءهم لموظفين يستخرجون لكل اسم صحيفته الجنائية . جلس وجلس بجانيه ، وأخذ طفلها يتململ حتى صحا من نومه فأخذته فى صدرها ، وبدأ يبكي ، وبينما كان يشعل سيجارة ، شدد يده وأدخلتها فى صدرها ونظرت إليه وقالت : طلعه عشان الواد بيعيط ، جعان يا عين أمه .

الفصل الثاني

الحياة مرة أخرى

توقفت العربية الميكروباص أمام مبنى سرية الشرطة العسكرية ، نزل وتبعته زوجته ، ثم بدأ كل من فى العربية فى النزول ، انتظموا فى طابور وأحاط بهم الجنود ، اقتادوهم إلى باب جانبي ضيق يفضى إلى حجرة الاستقبال فأجلسوهم بينما بدأت إجراءات التسليم والتسلم التى لم تستغرق وقتاً ، تحركوا مرة أخرى إلى الداخل ، ومن بعيد ، كانت زوجته تشير إليه حتى اختفت عن عينيه ، أدخلوهم إلى حجرة صغيرة تقع على جانب الممر ، جلسوا صفّاً واحداً على قرافيصهم ، وجلس جندي فى مواجهةهم يحمل مقصاً كبيراً تذكر أنه رأى هذا المقص فى يدى رجل كان يمر من حارثهم نادياً : أقص الحمبر . تقدموا واحداً فواحداً وأخذ يضع المقص كيفما اتفق فى رؤوسهم فيجيز الشعر من منابته ، كان هو آخر المتقدمين ، أخذ يتلقى بيده شعره الذى كان يقع كاملاً أمامه ، بعد الانتهاء تحسس رأسه فظهرت تحت أصابعه نتوءات كثيرة ، ثم أمرهم بالوقوف صفّاً واحداً فى مواجهة الحائط مرفوعى الأيدي وكل واحد يصفع الذى يليه ، فأخذوا يصفعون بعضهم على أفتيتهم ، تقدم أحدهم وأخذ يصفعهم على التوالى مدة ساعة .

فلما أحس بالتعب اقتادهم إلى فناء المبنى حيث توجد حنفية مياه متصلة بخرطوم ضخم يشبه خرطوم المطافى ، وأمرهم بخلع ملابسهم ،

فوقفوا عرابيا لا يستترهم شيء ، انتفض الخرطوم واندفع الماء يغمر أجسادهم ، ورغم حرارة الجو ، إلا أن الماء البارد جعل أجسادهم تتلوى وتقلص ، وشعر بعريه أمام الجميع فتضاءل في نفسه . بعد أن انتهوا من الاستحمام الإجباري أشار جندي إلى الحديقة التي يكسوها النجيل في منتصف المعسكر ، كانت أشجار الصفصاف على الجانبين سامقة وكثيفة ، وكانت أوراقها تتساقط بانتظام فتملأ الأرض ، سوف يقومون الآن بالتقاط أوراق الصفصاف وأعقاب السجائر وبقايا الطعام بعد أن سمح لهم بارتداء السلب فقط ، وبدا لهم أنهم كلما رفعوا بعض الأوراق نبتت أخرى في نفس اللحظة ، فالأشجار لا تكف عن رمي أوراقها ، وقبل أن تغيب الشمس كانوا قد انتهوا من تنظيف المعسكر ، فأخذوا يجرون في المعسكر يمك كل منهم مشمعا يساوي به الرمال بينما البعض كان يرش الماء . اقتادوهم إلى حيث العشاء المكون من رغيف (جراية) وثلاث ملاعق من مربى اللارنج ذات المذاق المر . وبعد أن انتهوا أغلقوا عليهم الزنزانة حتى الصباح ، تسلم كل واحد بطانيتين ، واحدة للفرش تحته ، وأخرى للغطاء ، كانت الزنزانة بجانب البوابة . واسعة نظيفة ، ولها شبك يقع قريباً من حراس البوابة ، فجأة شعر بحاجة إلى التدخين بعد أن فرش البطانيتين وجلس فوقهما مقرفصاً ومستنداً بظهره إلى الحائط ، أحس بالضيق فقد أخذوا كل متعلقاته ، أوقفوهم صتاً واحداً للعرض أمام ضابط الشرطة العسكرية ، فأمرهم بأن يضع كل واحد أشياءه على المكتب فامثلوا للأمر ، كرر الضابط : نظفوا جيوبكم وأجسادكم من كل شيء . نسي هو دبلة زواجه في أصبعه ، فجأة

تذكرها وأخذ يخلعها ببطء ، وقصف أحد معاونى الضابط وتحول أمامه بلا مبالاة ، وفى لحظة استدار وصفعه بقوة ارتج لها جسده ، كانت المفاجأة عنيفة جعلت عينيه تحتسان بالدموع ، وأخذ ينظر إليه طويلاً فانهفرت ملامحه فى ذاكرته ، الآن فى زيارته يتذكره بسهولة فيشعر بالاختناق تعز عليه نفسه ، لو حدث وقابله مرة أخرى فسوف يجعله يندم ، لقد انهفرت أصابعه على قفاه الذى يؤلمه كلما تذكر ، دفن راحته بين ركبتيه : هو الآن مدير كبير فى مؤسسة حكومية ، وهذا الجندي قد تم تعيينه بعد انتهاء تجنيده فى نفس المؤسسة ، وسوف يستدعيه كل يوم ويتلذذ بإهانته ، بل سوف ينقله إلى بلاد لم يسمع عنها من قبل ، أما الجزاءات ، فحدث ولا حرج . لا ، إنما هو قائده فى الشرطة ، وسوف يضعه فى السجن بعد أن يصفعه ويجعله يركع فى مزلة طالباً العفو . . هل تريد الصفعة على قفاك أم على مؤخرتك أيها الجندي ؟ ! يريد سيجارة ، سوف يكون انتقامه فورياً وقوياً ، كل من أهانه سيأخذ نصيبه ، بدءاً من لحظة القبض عليه ، وحتى حضوره إلى هنا ، يجعلهم صفّاً واحداً ثم يبدأ الاحتفال . لم يشعر بحاجة لسيجارة مثل الآن ، كان يدخر عدة علب أخذت منه كلها على البوابة ، هنا غير مسموح بالتدخين ، أما فى قسم الشرطة ، فكل شئ مباح ، حتى الجنس ، كان اليوم الأول هناك من أصعب الأيام التى مرت به ، أما الأيام التالية ، فعن طريق واسطة خرج من الزنزانة وأصبح يجلس فى النوبتجية بجانب الضباط ، ثم بعد ذلك فى حجرة عامل التحويلة على دكة خشبية ، كانت الحجرة ضيقة ، بها مكتب وتليفون ودكة مربوطة بسلسلة فى حديد شبك صغير يطل على حديقة وعلى الشارع الخارجى ، من جلسته

كان يرقب المارة فى الشارع . وكم حسدهم على تلك الحرية التى يتمتعون بها، عامل التليفون يدعى إبراهيم ، تجاوز الأربعين بقليل ، له شعر رمادى وشارب ضخم ، توثقت علاقته به وكان يقتسم معه الطعام والفواكه والعصائر التى تأتى بها زوجته .

كان يجلس بالساعات ينظر إلى الطريق الخارجى من خلال الشباك ولا يقطع تأمله سوى دخول ضباط وأمناء الشرطة للحديث فى التليفون ، له ثلاثة أيام يرقب المارة فى الشارع ، وكم تمنى وجوده بينهم الآن ، لكن بصره يرتد إلى عامل التحويلة الجالس صامتاً ملموماً فى بعضه ، وحدث فى الليل ما لم يكن فى الحسبان ، امتلأت الحجرة فجأة بالنساء ، فى القسم لا يوجد سوى زنزانين ، واحدة للرجال ، وأخرى للنساء ، فى بعض الأحيان تمتلئ حجرة الرجال عن آخرها ، فيتم الاستعانة بزنزانية النساء أيضاً ويتم وضعهن فى حجرة النوبتجية أو مع عامل التحويلة على الأرض . إحدى عشرة امرأة جئن فى هذا اليوم وملأن الحجرة ، احتل هو الدكة الخشبية بينما فردن ملاء وجلسن على الأرض تحت قدميه ، عشرة منهن قبض عليهن فى قضايا آداب، أما الباقية فقد تخصصت فى السرقة، كن جميلات بابتذال ، وأخذن يثرثرن وكأتهن فى نزهة ، عرف أن كل واحدة منهن جاءت بمفردها ، ولم يعرفن بعضهن سوى هنا ، وأنهن على مستوى عال من الثراء ولهن اتصالات بالكبار ، لذلك فكن على ثقة من خروجهن قريباً ، اقترحت إحداهن أن تروى كل واحدة حكايتها حتى لحظة القبض عليها ، وغمزن له : سوف تعرف أسرارنا ، ولكن لا بأس ، فلم تعد غريباً . وبدأت الأولى حكايتها فقالت :

الحكاية الأولى

كنت طفلة صنييرة حين حدث ذلك ، فقد كنت ألعب مع الأطفال أمثالي، وكان يوجد رجل يسكن جنب بيتنا ، وكان كبيراً في السن ، وكان ينظر لي دائماً في الروحة والجنية نظرات لم أكن أرتاح إليها ، رغم أنني كنت طفلة لا تعرف عن الدنيا أى شئ سوى اللعب ، وتحين الرجل فرصة ، وجدني أقف في الحارة وحيدة فقال لي إنه يريد أن يريني لعبة جديدة وأخذ يتحاييل عليّ حتى أخذني عنده ، ثم إنه أخذ يتحسس جسدي ويقبلني في فمي وهو يضمني ، فخفت وأخذت أصرخ ، لكنه وضع يداً عليّ فمى، ويده الأخرى أخرج بها شيئاً من بطنونه ووضعته ، فكاد يغمي عليّ، وأحسست وكأن سيخاً محمياً يكوى جسدي ، ولما فرغ تركني من بين ذراعيه ، وأنا مكومة على الأرض وقد سالت دمائي على فخذي فارتعبت وبكيت بكاءً شديداً من رؤية الدماء ومن الحرقعة الشديدة التي تحرق جسدي ، وأخذ هو يخوفني تارة ويرغبني أخرى ويقول لي : لا تخيري أحداً بما حدث حتى لا أقتلك . وبالفعل لم أخبر أحداً ولكنني أصبحت ذابلة لا أكل ولا أشرب وزاد نحولي ، وكانت أمي ترقبني ولم تخف عليها حالتي فصارت تلاطفني وتجرجرنني في الكلام حتى حكيت لها ما حدث ، فأخذتني من يدي وذهبت بي إلى القسم فأخذوا أقوالى واستدعوا الرجل فلم يستطع الإنكار أمامي ، وأخذ جزاءه في الحبس . أما أنا ، فقد عانيت كثيراً في حياتي من تلك الفعلة والتي كلما تذكرتها اشمأزت نفسي من الرجال ، وكبرت ونما جسدي وأنا نافرة من الرجال ، ولا أطيق الاقتراب

منهم ، إلى أن تعرفت على شاب جارسنا ، وصار يتودد إليّ ، وأنا أهرب منه وهو لا يزداد إلا إصراراً على تعرفه بي حتى وقعت في حبه ، وفي ليلة من الليالي دعاني هذا الشاب إلى بيته فترددت في البداية ، ولكنني وافقت لما رأيته منه من أدب ودمائة خلق ، وقد لمح لي بأنه يود الزواج مني ، وفي تلك الليلة كان رقيقاً معي حتى إنه كان يجلس بعيداً عني فاطمأنت نفسي إليه، ثم إنه أخذ يتحدث عن زواجنا وحياتنا معاً وقد انتقل إلى جوارى فجأة ، وأخذ يتحسس جسدي بيده ويداعبني فأنحلت مفاصلي فتجاوبت معه ولم أبد ممانعة ، وإن هي إلا لحظات لم أعرف بعدها أفسى الأرض أنا أم في السماء من شدة النشوة ، فكانت ليلة من أجمل الليالي اخترقني فيها ثلاث مرات ورجعت لي ثقتي في نفسي ، ولم يعد لي صبر على الابتعاد عنه فاستغل ذلك ، وكان يعمل في ملهى ليلي فكان يأخذني معه ويقدمني على أنني خطيبته لأصدقائه ومعارفه فيعجبون بي وبجمالي الذي بهرهم ، وكنت كلما حدثته في أمر زواجنا ماطلني وأدار دفة الحديث لجهة أخرى ، فأحسست أنه ينهرب مني وأن زواجنا من المحال ، فتعرفت على غيره وصرت في كل يوم أتنقل من رجل إلى آخر وكانوا يدفعون لي بسخاء ، إلى أن كانت ليلة كنت فيها عند ثري عربي في شقته فتم القبض عليّ ، واعتبروه هو شاهد ملك وبدأت الإجراءات حتى جئت إلى هنا وهذه حكايتي .

الحكاية الثانية

ثم تقدمت الشانية فقالت : أما أنا فحكايتي تختلف وإن كانت النتيجة واحدة ، نشأت نشأة فقيرة فأبى كان يعمل «عتالاً» وكان رزقه ضيقاً ، يعمل يوماً ، ويظل أشهراً لا يجد قوتنا ، ونحن ثمانية ، ثلاث بنات وثلاثة صبيان ، غير أبى وأمى ، ويشاء حظه التعس أن تكون بناته جميلات ، ولم تكن أمنا جميلة مثلنا ، لكنها كانت صبية وتصغر أبى بأعوام كثيرة وحياتنا تسير على منوال واحد لا يتغير ، أبى يخرج صباحاً بحثاً عن عمل ، ونحن نجلس فى البيت لا نجد ما نأكله فكانت أمى تتسجد من الجيران بعض الدقيق والزيت والسكر ، وتعمل لنا زلابية أو فطيراً نأكله فتسكت بطوننا حتى يحضر أبى متعباً ومحمطاً من المشاوير التى قطعها بحثاً عن أى عمل دون جدوى ، فتعمل له أمى ما يأكله ، وكانت ترقبنا نكبر أمام عينيها وهى عاجزة عن فعل شىء تجاهنا ، وترى أبى قليل الحيلة فتتنحى ركناً وتظل تبكى ، وكنا نرقبها فنبتكى أيضاً لبكائها . وحدث أن امرأة تعمل خاطبة ، وهى جارة لنا ، جاءت لزيارتنا ذات يوم ، فرأيتنى أنا وأختى ، فحدثت أمى فى أمر زواجنا ، وفى اليوم التالى جاءت إلى بيتنا ، وبصحبته ثلاثة رجال عرب فى سن أبى ، فأعجبوا بنا ودفعوا لأبى مبلغاً من المال ، وفى خلال أسبوع كنا قد تجهزنا للسفر ، فأما أختى الصغرى فسافرت إلى البحرين ، والوسطى سافرت إلى قطر ، وأنا طرت إلى السعودية ، وكان الرجل عجوزاً فلم يستطع القيام بواجبه نحوى ، فكان أولاده يتناوبوننى سرّاً واحداً وراء الآخر ، وكل ذلك بأكلى وشربى ، وعاملونى معاملة العبيد فلم أستطع الاستمرار وطلبت الرجوع إلى مصر ، فرجعت يا مولاي كما خلقتنى ، وما نابنى سوى أن

فقدت عذريتي ، وقد علمت أن أختي الصغرى ماتت هناك لأنها كانت طفلة صغيرة ، والأخرى ضاعت بعد أن هربت من بيت زوجها ولا أحد يعرف عنها شيئاً ، وكنت أنا قد تغيرت ونضح جسدى فأصبح محل اشتهااء الجميع ، فأخذت أبحث عن طلاب المتعة لأطعم أبى وأمى وإخوتى حتى قبض على وأتيت إلى هنا .

الحكاية الثالثة

واعتمدت الثالثة ، وسرحت ببصرها فى سقف الحجرة وقالت : أما أنا فلن أطيل عليكين ، لأنى كلما تذكرت حكايتى انهمر دمعى على ما فات ، فقد كان لى زوج محب وأولاد وبيت ، وكان زوجى يتمنى لى الرضا أرضى ، لكن نفسى الأمانة بالسوء أبت إلا أن أسير فى طريق الوحل ، كان زوجى يعمل حلاقاً ، تزوجنا على حب وكانت أحواله ميسرة فأسكنتنى فى شقة جلب لها كل شىء ، فأنجبنا فى ثلاث سنين ثلاثة أولاد ، ولدًا وبنتين ، لكن زوجى انشغل فى عمله فكان يذهب فى الصباح ولا يأتى إلى البيت إلا متأخراً مكدوداً ومتعباً فلا يفعل شيئاً سوى أن ينام ، وكان لى أخ يحضر دوماً للسؤال عنى ، فجاء ذات يوم وبصحبه شاب صديقه ومكثا فترة ثم ذهب ، وتكررت زيارات أخى وصاحبه فى غيبة زوجى ، وكان صاحبه شاباً ظريفاً أخذ يطرئ على محاسنى ويلمح لى بالنظرات أنه معجب بى فى غفلة من أخى ، فأخذت أميل إليه وأشجعه ، حتى جاء فى إحدى المرات بمفرده وتنهأت لنا الظروف ، فزوجى فى عمله ، وأولادى عند أمى ، ولا أحد معنا فى البيت ، ومن أول لمسة منه ذبت بين ذراعيه ونسيت كل شىء إلا ما أنا فيه .

واتفقنا أنا وهو أن يأتي كل يوم بعد أن يذهب زوجي إلى عمله ، فكان يرقب زوجي حتى يخرج ثم يأتي إلى فيجديني مهية له . وحدث في أحد الأيام أن كان عندي ، وكان زوجي من عادته أن يتركني نائمة ، فتذكر بعد أن ذهب إلى عمله أنه نسي شيئاً على البوتاجاز ، فرجع وفتح بمفتاحه حتى لا يوقظني وتسحب داخلاً فسمع أصواتاً آتية من حجرة النوم، ففتح الباب ووجدني عارية في أحضان ذلك الشاب ، ومن شدة ذهوله أخذ يصوت ويلطم خديه ، انتهز الشاب فرصة ذهول زوجي فقفز من البلكونة وهرب ، أما أنا فقد اكتفى زوجي بتطليقي بعد أن أعلم أهلي بما حدث ، ووجدت نفسي في الشارع فجأة بلا زوج أو أولاد أو أهل ، فذهبت إلى ذلك الشاب فطردي خوفاً من الفضيحة ، فلم أجد أمامي سوى المشي في الطريق الذي اخترته لنفسى ، وهو ذنب زوجي وأولادي ، ثم إنها أخذت تبكي وظل الجميع يواسيها حتى هدأت .

كان الليل قد انتصف ، وتغيرت نوبتجية عامل التحويلة فحل محله عامل آخر لم يكن يشعر تجاهه بارتياح ، وتكومت النسوة على الأرض والتصقن ببعضهن وأخذن في النعاس ، بينما جلس هو فوق الدكة الخشبية لا يستطيع النوم ، وتأمل عريهن فشعر بتوتر وانتصاب ، وتذكر زوجته وزواجه القصير ، ما الذي تفعله الآن ، هل هي نائمة ؟ أم أنها سهرانة تفكر فيه ، تذكر ليلتهما الأولى معاً فازداد توتراً . أتى بعض أمناء الشرطة فوجدوه مستيقظاً ، أمروه بالنزول إلى الزنزانة للمبيت فيها ، ألمه ذلك وأشعره بالإحباط ، فقد كانت صحبة هؤلاء النساء تروقه، فهي أهون في كل الأحوال من صحبة حلمبوحة أبو قصة أو عبده كوارع ومحمد كرشة وغيرهم من الأسماء

العجيبة والتي تضمها زنزانة الرجال ، قضى الليل مؤرقاً حتى الصباح حين أتى عامل التحويلة ليخرجه من زنزانه.

لما اجتمع بهن مرة أخرى أخذن يضحكن ويغمزن بعيونهن ويتهايمن، فأدرك أنهن يعرفن أشياء لا يعرفها ، لكنه كان متشوقاً لسماع بقية حديثهن فبدأن .

الحكاية الرابعة

تقدمت الرابعة فقالت : إن حكايتي تبدأ من حيث نشأت ، كان أبى رجلاً مزواجياً يعشق النساء ، وهو وإن كان فقيراً ، فإن النساء كن يعشقنه، كانت أمى الثامنة فى ترتيب نسائه ، والرابعة ممن كن على ذمته ، والأعجب من ذلك أنه جمعهن فى شقة واحدة صغيرة بأولادهن ، فكنا ثمانية عشر أخاً وأختاً ، غير أربع زوجات وأبى فيكون مجموعنا ثلاثة وعشرين فرداً ، وكان أبى رغم فقره ، وسيماً طويلاً ممشوق القوام ، يعتنى بنفسه بمظهره حتى لتحس أنه أحد أبناء الأثرياء ، وكانت زوجاته جميلات أيضاً فأخذنا من أبى وأمهاتنا ذلك الجمال ، وكنت أنا أجملهن ، وكان أبى يلد له جمع زوجاته الأربع على سرير واحد بعد أن ننام جميعاً ويبدو أنهن أحبين ذلك فكن يتفنن فى إرضائه والتقرب إليه ، وفى ليلة من الليالى رأيناها ورأينا أبى عارياً بينهن، فأخذنا نتفرج عليهم ونسمع أصواتهم ، وهم يظنون أننا نائمون ، فأخذنا فى تقليد أبى وزوجاته أنا وإخوتى فى لعبنا ، فكنا نخلع هدومنا وننفرج على أعضائنا ونتحسسها ونقلد أصواتهم ، وهكذا استمرت ألعابنا إلى أن كان يوم من الأيام كنت نائمة بين إخوتى فأخذ أحدهم يتحسنى

فاستسلمت لمداعباته، وعملت نفسى نائمة وظننت أنه يلعب معى، فما كان منه إلا أن مد إصبعه وخرقنى ففض غشائى، ارتعبت وأخذت أبكى، لكنى لم أخبر أحداً، وكنت وقتها ابنة أربعة عشر، ومن يرانى يظن أنى ابنة عشرين، وقد أحببت ابن الجيران، وكان شاباً فقيراً، وتقدم لخطبى فوافق أبى لأنه كان يتمنى أن يزوجنا جميعاً، وكانت إجراءات الزواج سريعة حتى حلت ليلة الدخلة، فى تلك الليلة أخبرت أمى بما حدث من أخى، فلطمت خديها ولم تدر كيف تتصرف، ثم إنها أحضرت زوجين من حمام فذبحتهما ولطخت بدمهما منديلين خبأتهما فى صدرها، وأخبرت عريسى أنها سوف تدخل معى هى وحدها لإزالة بكارتى لأننى مرتعبة وخائفة، وانطلقت الحيلة على الجميع، وخرجت أم تزغرد وقد نشرت المنديلين على يديها، والجميع يظن أن هذا دمي، واستمرت الأحوال بزوجى تمر من سسى إلى أسوأ فيوماً يعمل وعشرة يظل جالساً فى البيت بلا عمل حتى ضقت ذرعاً وأخذت أتشاجر معه كثيراً وأعابره بأنه عاطل، فلما أعيته الحيلة قرر السفر إلى العراق لعل حظه هناك يكون أسعد حالاً، وانقطعت عنى أخباره مدة طويلة كنت أثناءها أدبر حالى من هنا وهناك لأسد رمقى، ثم أنه أرسل لى خطاباً يخبرنى فيه بأنه لم يجد عملاً حتى الآن وأن على أن أصبر، فلم أجد ما أفعله سوى أن أخرج للعمل، وأن أعتد على نفسى، ولكن كنت كلما ذهبت إلى عمل أجد من يتطلع إلى جسدى ويساومنى عليه، فاتركه إلى عمل آخر. وهكذا أخذت أنتقل من عمل لآخر حتى وقعت على عمل كان صاحبه شاباً وسيماً، أظهر لى اهتمامه بى وأنه وقع فى حبى فأحببته أنا أيضاً. وأسلمت له قلبى وجسدى حتى سثم منى فهجرنى، فاسودت الدنيا فى وجهى وأقسمت

أن أجعل الرجال يرتعون تحت قدمي ، فأخذت أعطى نفسي لمن يدفع أكثر
اشتهرت ، وأخذ أكابر البلد يجيئون إلى طلباً للمتعة ، حتى تشاجرت مع
أحدهم فأبلغ عني فقبضوا عليّ وأتوا بي إلى هنا وهذه حكايتي .

الحكاية الخامسة

ثم تقدمت الخامسة وقالت : كان لي جار شاب ظريف ، نشأنا سوياً
فأحبته وأحبني ، وتقدم لخطبتي فوافق أهلي لما عرفوه عنه من الاستقامة
ودمائه الخلق ، واستمرت خطبتنا ثلاث سنوات كان خلالها يجهز نفسه
للزواج ، وفي أثناء ذلك كان يأتي إلى منزلنا فكان أهلي يتركوننا سوياً
فتتداعب بالأيدي والأرجل والضم والقبيلات المختلصة ، فيتأجج شوقي إليه
وأنطلع إلى اليوم الذي يضمني معه سرير واحد ، وقد جاء هذا اليوم ، وبا
ليته لم يأت ، فبعد أن أغلق علينا الباب ، خلعت ملابسى وتهيأت له فأخذ
يضمني ويقبلني حتى غبت بين ذراعيه ، واشتعل جسدي من الرغبة في إتمام
الوصال ، فإذا به يتركني ويتكلم بجاني وبنام ، فتعللت بأنه متعب ولا بد له
من إتمام ذلك غداً ، وفي الغد تكرر ما حدث ، فأردت أنا معرفة ما به
فاقتربت منه وأخذت أرغبه في أداعبه ، وأمسكت آلتها فوجدتها ميتة لا
حياة فيها ، وإذا به يرتع في حضني ويبكي من البكاء ، فعرفت أنه ليس له في
النسوان ، وأثناء بكائه أخذ يرجوني ألا أفصح سره فوعدته ، وقد دفعته
للعلاج فذهب لعدة أطباء دون جدوى ، وظللت معه مدة ثلاث سنوات وأنا
ما أزال بكراً ، وفي مواجهة شقتنا ، تقع شقة أخرى ، يسكن فيها شاب
عازب ، لحنى ولمحته أكثر من مرة في صعودي وهبوطي ، وكان يتسم لي

بأدب فأرد تحيته دون أن نتكلم ، لكن إشارات عينيه لم تكن خافية على من كانت فى مثل حالتى ، وفى إحدى المرات بينما كنت صاعدة إلى شقتى كان هو يقف على باب شقته فتبادلنا الحديث لدقائق، فصارحنى بأنه معجب بى، وأنه بإشارة من يدي يرتقى تحت قدمي، فكنت أردّه بلين الكلام فلم ينقطع رجاءه، وظل يلاحقنى فى غدوى ورواحى ويتغزل فى مفاتنى ويثنى حبه حتى وقع قلبى فى محبته وصرت أتحين الفرص للاجتماع به، وكان زوجى يرانى ساهمة واجمة فيظن أنى متعبة، ولا يدري أنني أفكر فى ذلك الشاب، وفى أحد الأيام كان زوجى مسافراً فى عمل يتغيب فيه أسبوعاً، فارتديت قميص النوم الذى ارتدته ليلة الدخلة وتزينت وأفرغت العطور على جسدى فكنت كأحسن ما يكون، ثم إننى فتحت الباب وانتظرت خروجه، وعملت نفسى مشغولة بالقرب من الباب وأنا أتحين خروجه ، فلما خرج ورأى على ما أنا عليه وقد انكشف جسدى أخذ ينظر إلى مبهوراً، وهو يظن أنى غافلة عنه، ورفعت نظرى إليه وكأنى فوجئت ، وسألنى عن زوجى فقلت : إنه مسافر. فتقدم منى وأغلق الباب وراءه وأخذنى بين ذراعيه وأنا أدعى المقاومة حتى وقعت ووقع فوقى ، وخرقنى برمحه فصرخت من شدة الألم، ثم بعد ذلك لم أتركه حتى أفرغنا ثلاث مرات أو أربع مرات بلذة عجيبة، وصرت لا أقدر على فراقه ، وكان زوجى قد لاحظ اهتمامى بنفسى فجرت الدموية فى وجهى وجسدى وصرت أجمل من الأول، فبدأ الفأر يلعب فى عبه فأخذ فى مراقبتى دون أن أدري فكان يخرج إلى عمله ولا يذهب بل يحضر إلى شقتنا فلا يجدنى، وأكون أنا فى تلك اللحظة بين أحضان ذلك الشاب، وفى يوم من الأيام ذهب كعادته فتهيأت أنا للملاقاة

الشاب وكان زوجي يختبئ أمام المنزل ليرقبني وأنا نازلة ، فلم أخرج ، ودخل شقنا فلم يجدني فتأكد من أنني في الشقة المجاورة مع ذلك الشاب ، فذهب إلى قسم البوليس وعمل محضراً لى وجاء ومعه الشهود واقتحم الشقة فوجدني عارية بين ذراعى الشاب فأثبت علينا جريمة الزنا ، وهكذا جئت إلى هنا .

(3)

تكررت حكاية نزوله إلى الزنانة كلما جاء الليل ووجده أمناء الشرطة أو الضباط مستيقظاً ، وكان يتعجب لماذا يريدون إزاحته في الليل وتساءل عن الغرض من ذلك إلى أن همست له إحداهن قائلة : إذا أردت أن تعرف فتصنع النوم حين يأتون وسوف ترى بنفسك . وكان بالفعل متشوقاً لمعرفة ما يحدث ، فتصنع النوم حين رأهم آتين ، وأرهف حواسه لما يدور حوله ، ألقوا نظرة عليه فوجدوه نائماً ، وحتى يتأكدوا هزه أحدهم ، ثم بعد ذلك أخذوا يتحسسون النساء وسحب كل واحد واحدة ، اختفى بها داخل المبنى ، ظل راقداً متصنعاً النوم حتى أوشكت الساعة على الثالثة صباحاً حين بدأت الفتيات يتسحبن إلى الحجرة منهكات ، وبمجرد لمسهن الأرض ثمن ، وبدا له أن جميع من في قسم الشرطة يعرفون ذلك . حكى لزوجته عما رآه وسمعه ، لم تعلق ، فقط ابتسمت واحمر وجهها فأحس غيرتها . في الصباح الباكر تم ترحيلهن إلى مبنى سراى النيابة ، وأفرج عنهن بكفالة من مبنى القسم ، صعدن خصبصاً وسلمن عليه ، ضغطن على يده في مودة غير مفتعلة ، ابتسم وقال : يحز في نفسى أنني لن أسمع بقية حديثكن . ضحكت واحدة وغمزت

له بطرف عينها: يا خويا يعنى هاتسمع أم كلثوم ، على كل حال ممكن نسمعهمولك بس مش هنا ، تعالى لى وهاروقك وأسمعك لحد الصبح ، أعطته عنوانها ورقم تليفونها ، الباقيات فعلن مثلها ، بعد أن غادرن المكان شعر فجأة بالوحدة ، ولم يجد ما يفعله سوى أن ينام . يحضر إبراهيم عامل التحويلة صباحاً فيجلس خلف المكتب يرد على التليفون ، يقوم بتدوين المكالمات فى دفتر كبير أمامه ، ولم تكن تخرج عن بلاغات عن جرائم تحدث أو حدثت ، اقترح عليه أن يقوم هو بالتدوين ، كان يمسك بالقلم الجاف المربوط من منتصفه بدوابة فى الدفتر ، ويدون بالساعات ، جرائم قتل ، سرقة ، حرائق ، نأر شيكات بدون رصيد ، اغتصاب ، زنا . قال له إبراهيم ذات يوم : هل تريد الاستحمام ؟ أوماً له بالإيجاب ، فأخذه من يده إلى دورة المياه ، وكانت زوجته أحضرت غيارات داخلية . غمز له : ممكن تاخذ مراتك معك . أحس ناحيته بالامتنان ، فهو يعرف أنهما تزوجا حديثاً ، لكن ليس هذا بالمكان الملائم ، شكره وأخذ حماماً بارداً فشعر بالانتعاش ، ثم بدأ يصطحبه إلى مقهى يقع بالقرب من مبنى القسم ، يجلس معه ساعة يتناولان الشاي والقهوة وقد ينضم إليهما بعض المخبرين ، كانت تلك الجلسات تجدد نشاطه وتعيد إليه توازنه ، يتنفس هواء حراً ، ثم يرجعان مرة أخرى إلى حجرتهما .

شعر بحاجة الشديدة إلى سيجارة ، شم رائحتها فملأت خياشيمه تلفت فلمح أحدهم يدخل بحذر ، كان يضع السيجارة فى راحة يده فلا يظهر منها سوى الفلتر الذى يضعه فى فمه فتتوهج السيجارة فى راحة اليد دون أن يلمحها أحد ، آخر كان يجلس بجانبه يبدد الدخان بكرتونة فى يده ، لو لمحه

أحد حراس البوابة فسوف يكون عقابه صارماً ، كانوا معه فى زنازاة واحدة فى القسم لذا فهم يعرفون أنه يدخن كثيراً ، وكان يعطيهم مما معه ، اقترب منه الذى يدخن وأعطاه السيجارة فأخذها متلهفًا وامتنص نفسًا عميقًا ابتلعه ثم بدأ يخرج به ببطء ، وأحس بدوار وخدر للذيد ، له يوم كامل لم يدخن ، ترك له السيجارة وانضم إلى زملائه وأخذوا يتحدثون فيما بينهم ، ثم رجع إليه وقال له : أنا شاورت الزملاء وقررنا أن تدخن أنت فقط . وأخرج من ثنية رجل البطلون ثلاث سجائر ، كذلك فعل الآخرون فكان المجموع ثلاث عشرة سيجارة من ماركات مختلفة تكومت أمامه ، قالوا إن السجائر تؤثر فيه بشكل كبير وهم يرونه متعبًا من عدم وجودها ، بينما يستطيعون التحمل . لم يستطع الكلام ، فهذا الموقف النبيل لا يجد له مبررًا خاصة أنه لا ينتمى إليهم ولا يجمعه بهم سوى الحبسة ، لكنهم أسروه بهذا الموقف . قرر أن يخفى السجائر تحت البطانية فهي مكان آمن ، وأنه يستطيع تدخين سيجارة كل ساعة حتى موعد الزيارة فى الغد .

كان متعبًا فتمدد فوق البطانية وفرد بدنه ، حين يكون الجسد متعبًا فإن الذهن يصبح صافيًا ، هو لا يستطيع تبرير ما حدث ، كأنه مقدر ومكتوب أن يهرب ، ثلاث عشرة سنة كاملة ، حدث ذلك فى منتصف السبعينات ، تحديدًا عام سبعة وسبعين وتسعمائة وألف وبعد ثلاثة شهور أيضًا فقد اعتاد القول : لو جرى لها شيء فسوف يموت وراءها . الآن يدرك أن لا أحد يموت وراء أحد ، وأن الزمن يضعف من الكوارث الكبرى ، الغريب أن مرور الزمن يشعره يحزن جارف إليها ويعمق إحساسه بالفقد ، ودائمًا ما يجلس يتمثلها فى حياتها اليومية ؛ إيماءاتها ، التفاتاتها ، تبسمها وغضبها ، قامتها إذ تنتصب

واقفة ، نبر صوتها ، لحظات خفوته إذ تهمس ، لحظة رنت إليه وهو يحلق
ذقته للمرة الأولى .

تلهفها على احتضانه ، والزهو حين تراه أطول منها ، وإذ ترى منابت شعر
شاربه مخضراً ، وإذ تراه يشاغل ابنة الجيران فتسعد .

كانت السجارة الثانية بين شفثيه يشربها ببطء ، واجتاحته مشاعر أسي
نحوها ، ماتت وهي دون الأربعين ، وكان هو أيضاً صغيراً ، وتردد في نفسه
سؤال : لو لم تمت ، هل كان سيهرب ؟ وكانت الإجابة واضحة أمامه :
نعم ، كان سيهرب كما هرب من قبل من أشياء كثيرة ، هو ذو طبيعة هروبية ،
ومنذ أن كان صغيراً وهو دائم الهروب ، من البيت والمدرسة ومن زملائه ،
واستمرت هذه الصفة ملازمة له حتى كبر ، في العام الثاني والسبعين ، حين
قامت حركة الطلبة الشهيرة في الجامعة ، كان هو أحد زعمائها ، ترك زملاءه
يسقطون في أيدي الشرطة وهرب ، بل إنه تنصل منهم بعد ذلك ، ربما كانت
هذه المرة هي أطول هروياته ، ثلاث عشرة سنة في هروب مستمر ، لم يستطع
الالتحاق بوظيفة . يطلبون دائماً شهادة تأدية الخدمة العسكرية ، وكان عليه
البحث عن عمل يأكل منه هو وإخوته الصغار وأبوه المسن ، ولم تكن المسألة
سهلة ، لكنه رضى بأعمال يدوية شاقة لم تكن مناسبة لشاب حاصل على
ليسانس آداب . في الثامنة مساء يعود إلى البيت ولا يخرج أبداً تحت أية
ظروف ، فقد تقابله دورية شرطة ، أو يقع في أحد الكمائن المنصوبة على
الكبارى ، أول شيء يفعلونه هو طلب بطاقة تحقيق الشخصية ، ثم بعد ذلك
شهادة تأدية الخدمة العسكرية ، الغريب أنه في الأيام الأولى من هروبه ،
سرت محفظته وبها البطاقة وكرنيه الجامعة وصور له ولأمه ، وقد ظل بلا

هوية حتى يوم زواجه .

انتهت السجارة فأطفأها فى الأرض ، افترق أن اليوم هو الخميس ، وأن الجمعة أجازة ، وسوف يتم ترحيله يوم السبت ، أمامه الغد بطوله إذن، كان الجميع نائمين وأصوات شخيرهم تتناغم وتردد فى المكان ، ولابد أن الساعة تجاوزت الثانية صباحاً ؛ لأن الحراسة على البوابة تغيرت منذ دقائق ، ففى كل أربع ساعات يتم تغيير الوردية ، رأى أن عليه النوم الآن ، فأمامه ثلاث ساعات قبل حلول موعد فتح الزنزانة فى الخامسة ، فرد بدنه وأغمض عينيه فراح من فوره فى النوم .

(4)

فى الخامسة صباحاً انفتح باب الزنزانة ، وانتروا واقفين على صوت الحارس ، خرجوا صفّاً واحداً حتى فناء المعسكر ، ألقى إليهم بالتعليمات: عليهم الملمة أوراق الصفصاف المساقطة على الأرض وأعقاب السجائر المدفونة فى الرمال ، وكانت أشجار الصفصاف كثيفة على الجانبين ، وانتشروا يجمعون الأوراق ، ولم تكن المهمة سهلة ، فكلما التقطوا بعضها سقط غيرها ، واستمرت اللعبة حتى العاشرة ، ثم أخذوا يرشون الزرع تناولوا إفطاراً مكوناً من رغيف واحد وبعض حبات الفول المدمس ، ثم إلى الزنزانة مرة أخرى ، الساعة تقترب الآن من الواحدة ظهرًا ، وأمامه أربع ساعات كاملة قبل موعد طابور التمام فى الخامسة ، لم يشعر بالرغبة فى التدخين فتمدد على ثمرته وفرد البطانية حتى غطت رأسه ، وحملق فى خروم البطانية

فكانت عشرات النقاط المضيئة تتراقص أمام عينيه ، أمينة زوجته ، أين هي الآن؟ وما الذى تنعله فى تلك اللحظة؟ هل هي نائمة؟ مستيقظة؟ فيم تفكر؟ فى البيت أم عند أمها؟ يشعر بحنين جارف إليها ، يذكر لقاءهما الأول ، أول حديثهما ، كان ذلك فوق كوبرى قصر النيل بعد رسالة دسها فى كتاب «آلام فيرتر» وحملها إليها أخوها الصغير ، فرحته بها لما أتت ، حديثه المتصل وإيماءاتها وهى تنظر إليه بإعجاب ، كانت فى الثانوية العامة ، لكن وجهها يسبح فى طفولته الأزلية ، حدثها عن كل شىء مرّ بحياته حتى لحظة لقائه بها ، عن علاقته بأخرى عرفها قبلها ، حدثها عن هروبه من التجنيد ، وأنه لو لم يفعلها لمات فى وقتها ، وعن متعة التمرد على كل ما هو سائد ، كانت طفلة ترى العالم للمرة الأولى من خلاله ، يذكر اندهاشاتها الأولى وأسئلتها البكر ، اقترابه منها وتشممه رائحة عذريتها الطازجة ، ارتجافها إذ يمسك يدها البضة الطرية ، مواعيد ما بعد المدرسة فى كازينو الزهرة ، بحثهما الدائم ، إذ يجلسان ، عن الجرسون ومعرفة تحركاته لاختلاس قبلة ، فى كل الممرات التى ذهبا فيها للكازينو لم يضبطا فى وضع مخمل ، كانا يرصدان حركاته ويسنمعان بذلك ، يفعلانه بنشوة طفلين يكتشفان العالم للمرة الأولى ، فارق السن بينهما ست سنوات جعلته المعلم والمرشد وقائد مسيرة حبيهما ، كان وقتها فى الرابعة والعشرين ، أما هى ففى الثامنة عشرة مرافقة جميلة لم تهجر طفولتها بعد ، كان يشعر أن مجرد لمسة من أصابعه يهتز كيانه ، يتدفق الدم فى كل جسدها ، بل كان يسمع صوت تدفقه فى العروق . حدثها عن الأخرى ، اسمها نادين ، وهى التى أعطته موعداً ، حدث ذلك فى مكتبة كانت تعمل بها ، وكان هو يطلب مكالمات تليفونية لا

يذكر لمن ، أخذت تلاحقه بنظراتها ولم تهمله ، ذهب متأخراً فوجدها تنتظره على النيل ، صارحته بحبها من أول نظرة وصارت تنغزل فيه بينما جلس صامتاً ومربوكة ، نادين تكبره بعدة سنوات ، تقابلا بعد ذلك عدة مرات ، حدثته عن موت أمها وأبيها ، رعاية أختها الكبرى المتزوجة لها ، جمالها ونضجها جعلها الخطّاب يفدون على أختها وزوجها طلباً ليدها ، لكنها لم تحب أحداً ممن تقدموا لها ، قالت أن أبرز ما يميزه هو طوله الفارع ووجهه الأسمر الوسيم ، وأن عينيه السودوين بنظراتهما الحزينة هما ما جعلها تتعلق به ، وقالت إنها وصفتها لأختها فأجبت هي أيضاً على السماع لأنه يشبه ممثلاً هندياً . وكان هو صامتاً طوال الوقت مشوش الذهن ، ضربت له موعداً آخر في حديقة الأورمان ، ودهش عندما وجد معها أختها كي تراه عن قرب جلستا أمامه وظلتا تحدقان فيه ، تحدثت أختها عن ذلك الممثل الهندي والذي تحبه حب عبادة وقارنت بينهما ، قالت : أنت النسخة المصرية ، لكن تعرف ، أنت أكثر طولاً ووسامة منه ، وشعر بفرحتهما في تلك اللحظة وهما تغازلانه ، بينما أغلق هو نوافذه الخارجية وانفصل عن عالمه ، يفعل ذلك دائماً كلما حاول الهروب من شيء ما ، هذا الشيء كان يحرجه ، يشعره بالمهانة ، سلبيته في مواجهة عالمه ، أنه ليس فاعلاً ، هروبه الدائم إلى أمه وكأنها يقينه الوحيد ، مر شهر على موتها ، كأنه مازال مربوطاً بحبله السرى بها ، كانت تمثل له كل شيء رحلت في الأربعين فزلزلت كيانه ، قربه منها جعله يرى الموت وجهاً لوجه : كيف مرضت ؟ ملح بداية غروبها ، شمسها إذ تأفل ، سكرات موتها ، نظراتها وإيماءاتها وإشاراتنا ، آخر ما نطق به لسانها ، لا شيء يعوض فقدها ، منذ تلك اللحظة ، يشعر بالموت طوال

الوقت ، يناسبه العداء ، تحولت معركته مع الموت إلى مسألة شخصية . فاتحته نادين في الزواج ، قال إنه هارب من التجنيد ولا يملك شيئاً ، انقطعت عنه أسبوعين ثم جاءته ، كان ثمة شيء فيها قد تغير ، وفاجأته بأنها تزوجت من ثرى عربى ، سافر هو وسوف تلحق به بعد شهر ، تزوجت فى شقة مفروشة فى وسط البلد ، تعرف عليها عن طريق خاطبة وتزوجها على الفور ، اصطحبته إلى الشقة ، وهناك صارحته أنها فعلت ذلك لأنها تحبه ، وقد أدركت استحالة زواجه منها لأن ظروفه صعبة ، نادين أدخلته دنيا المرأة للمرة الأولى ، أعطته كل ما تريد إعطاءه امرأة محبة لرجل ، حتى المال الذى تركه لها زوجها ، كانا يتقابلان يومياً فى الشقة ، وكانت هى مثل إسفنجة تريد امتصاصه لآخر قطرة ، أما هو ، فلم تكن المسألة تعدو محاولة أخرى للهروب من مشاكله التى لا حل لها .

سمعهم يتادون عليه فى الخارج ، انتبه وهب واقفاً باتجاه الباب ، انفتح باب الزنازة ورمى له أحد الجنود قميصه وحذاءه ، قال له : لك زيارة فى الخارج .

أكمل ارتداء ملابسه واقتاده إلى حجرة الاستقبال ، لم يكن بها سوى امرأة جلست نى ركن الحجرة ، وتسمر فى مكانه ، آخر ما كان يتوقعه أن يجدها أمامه ، تذكرها على الفور رغم التغير الهائل الذى يشاهده الآن ، كانت زينب أو زوزو زميلته فى الكليشات ، وقفت وأخذت يده فى يدها وأجلسته بجانبها ، ولمحت دهشته فابتسمت وقالت : سألت عليك فى القسم فدلونى على هنا ، ودلونى أيضاً على اسمك الحقيقى ، كانت ترتدى بلوزة سوداء ناعمة أظهرت كتفها وجزءاً من صدرها ، وبنطلون جينز ،

وكانت جميلة ، أخذ الجنود يبصون عليهما ويتهايمسون ، أخرجت من حقيبتها أربع علب سجائر وعلبة عصير مانجو ، فتحتها وأعطتها له : اشرب يا خويا ، دول بهدلولك يا عين أملك . ضحك للهجتها الريفية رغم مظهرها الأرستقراطي ، وفتح علبة سجائر وأخذ يدخن بشراهة ، سألها عن أحوالها فأخبرته أنها خرجت على ذمة القضية بكفالة ، وأنهم يراقبونها ، لذلك فهي لا تعمل الآن وتدبر أحوالها بصعوبة ، جلست معه ساعة تحدثه ، أخرجت ورقة وقلماً وكتبت عنوانها ، دسّته في جيب قميصه : أول ما تخرج وينفك حبسك تحيى فوراً أو تتصل . سلمت عليه بحرارة ومضت بعد أن وعدت بزيارة أخرى ، قال إن ترحيله غداً ولا داعي لتعبها ، شكرها ودس في يده بعض السجائر وترك الباقي لها ، وقال إنه سوف يتصل بها فور خروجه . حل المساء فخرجوا صفاً واحداً للتمام ، ثم بعد ذلك ذهبوا للعشاء ثم العودة مرة أخرى للزنازة ، وشعر بسعادة غامرة ، ذلك أن هناك من يهتم بأمره ، وأنه غداً لن يكون في هذا المكان . تنهد وأخذ يدخن ، سافرت نادين وانقطعت أخبارها ، تعرف على أمينة وتوثقت علاقته بها ، أحبها حباً جارفاً بينما الأخرى توارت في الذاكرة ، وأخبرته أمينة أنها فاتحت أمها ، وأنها تعرف علاقتهما ، وأنه لا بد من التقدم لخطبتها وسوف يوافقون ، فهم يفهمون ظروفه ، سوف يعرف من أبيها فيما بعد أنه كانت له نفس المشكلة ، وأنها أبداً ما وقفت عائناً أمام مستقبله ، بل إنه تزوج ثلاث مرات أثناء هروبه ، لكنه أخبره أيضاً أن مشكلته لا بد لها من حل وأنه يجب عليه تسليم نفسه . في أحد المساءات فوجئ بنادين تتصل به ، فقد وصلت وتريد رؤيته حالاً ، مرت سنتان على آخر مقابلة لهما ، ووجدها في انتظاره ، كانت معها

طفلة ابنة سنتين ، أرادت نادين احتضانه وتقبيله أمام ابنتها لكنه اكتفى بالسلام ، قالت إنها رجعت بالأمس فقط ، وإنها مجنونة من عدم رؤيتها له ، لم تكن تعرف علاقته بأمنية وأخذت تحدّثه عن أحوالها هناك ، وإنها تكره زوجها خاصة بعد ولادة ابنتها وإنها طلبت منه الطلاق رغم إنه يحقق كل طلباتها . ثم سأله فجأة : إذا أنا طلبت الطلاق ووافق ، هل تتزوجني ؟ لا أريد منك شيئاً سوى أن تكون معي ومع ابنتنا . ونظرت إليه تستطلع في وجهه وقع المفاجأة : نعم ، هي ابنتك . لكنه لا يعرف شيئاً ، كان صمته طويلاً قبل أن يحدثها عن حياتها التي أصبحت تحياها بعيداً عنه ، ثم عن الأخرى التي أصبحت كل شيء في حياته ، وأن عليها عدم طلب الطلاق طالما زوجها يحبها ، وما ذنب الأخرى وقد أصبح هو كل أملها . كان يتحدث ببساطة جارحة ، وكانت هي تسمع وقد جحظت عينها وأخذت تعض شفتها حتى أدمتها ، فجأة انفجرت في بكاء مكتوم وقامت وأخذت ابنتها ، وخرجت دون كلمة واحدة . لن يراها بعد هذه المرة ، إلا أنها سوف ترسل له خطاباً من هناك تهدهد به بفضح علاقته بها لدى زوجته ، وأنها الآن غنية وقادرة وسوف تدمر مستقبله ، وقد سأل نفسه مراراً : كيف تستطيع ذلك ؟

(5)

في الخامسة صباحاً ، اصطفوا في فناء المعسكر ، بعد التفقد نودى على كل واحد باسمه ، تقدم من مكتب الأمن معه مندوب الشرطة الذي سوف يتسلمه ويكون عهده من الآن ، تسلم متعلقاته : ثلاثون جنيهًا ، ساعة يد،

دبلة فضة . ارتدى ملابسه الملكي ، كان مندوب الشرطة العسكرية طويلاً مثله ، وضع فردة كلابش في يده اليمنى ، الثانية وضعها في يده اليسرى وأغلقها ووضع المفتاح في جيب سترته العلوى ، قال له ضاحكاً : لو أردت الهروب فعليك قتلى أولاً . لم يضحك ، ونظر إلى أوراق الصفصاف مملاً أرض المعسكر ، غمغم : امضغوها إذا شئتم . خطا خارج المعسكر فلمح زوجته وأخته في انتظاره ، الآن يستطيع التدخين متى شاء ، تقدمتا وناولناه س جاتر وماء . ناولته زوجته (ساندويتش) وأعطته الآخر ، جلسوا يأكلون أمام محطة الأنوبيس ، بعد الانتهاء ، وجد الجندي يفك القيد من يده ، قال له : باين عليك ابن ناس ومش وش بهدلة ، منظرنا مش حلو ، وانت مش هاترضى لى الأذبة ، اوعدننى ماتهرش فأنت عهدي وأخش السجن بذلك هز رأسه وقال نق بى ، ثم إن أختى وزوجتى معى فكيف أهرب . ركبوا عربة ميكروباص حتى رمسيس ، ومن هناك استقلوا أخرى حتى الهايكسب ، قال له : تعرف مكان الكتيبة ؟ قال إنه تركها منذ مدة طويلة ، لكن من المؤكد أنه سوف يعرفها إذا لمح بعض العلامات .

أخذ يتذكر بعض الضباط ، قائد الكتيبة وقتها ترقى وأصبح عقيداً ، وقد انتقل إلى المدرسة العسكرية ، يذكر أيضاً النقيب هانى قائد العمليات ، والنقيب أحمد أبو الخير ، والملازم أبو السعود ، أما الجنود فلا بد أنهم أنهوا خدمتهم . أخذت العربة تطوى الطريق ، بينما أخذ يفكر كيف سيستقبلونه ومن من القدامى يتذكره ؟ كان مشهوراً بقرابته لقائد الكتيبة الراحل عبد البصير ، لم يكن قريبه ، إنما جاره الذى تربى معه . اقتربت العربة من نهاية سور كان يعرفه جيداً فأشار للسائق بالتوقف ، نزلوا وتقدموا ناحية الممر ، اجتازوا شريط

السكة الحديد ، ومروا من تحت أحد القطارات الواقفة حتى انتهوا إلى طريق أسفلتي ، تقدم هو والجندى بينما فى الخلف كانت أخته وزوجته ، ومن حولهم . كانت الصحراء تحوطهم وشمس يوليه فى منتصف السماء تصب لهيئها فوق رؤوسهم ، ظلال الأجساد المكدودة انطرحت خلف ظهورهم المحنية تنن من لفح الشمس ، تقدم الموكب حزينا صامتا فى طريق خلت إلا من بعض عربات الجيش تمر بسرعة بين الحين والآخر ، كان صوت لهائهم يعلو الآن ، بينما الطريق بدت بلا نهاية ، ما الذى سيفعلونه معه ؟ سمع الكثير عن حفلات الاستقبال فى سجون الجيش ، المساجين القدامى سوف يحتفلون به على طريقتهم الخاصة ، سوف ينهلون عليه ضربا ويأخذون ما معه ، يكلفونه بحمل خرائمهم ، ويضعون قصاصات القماش المغموسة فى الزيت بين أصابع قدميه حين ينام ، ثم يشعلونها ، يعطونه آخر ثمرة لبنام عليها بالقرب من جردل البول ، وإذا استغاث فلا مغيث . إنه أحد الأعراف الراسخة التى يعرفها الجميع ، أحس بالرهبة وهم يقتربون الآن من قيادة اللواء ، يذكر أن للكتيبة مدخلا خاصا يؤدى إليها مباشرة ، اقتربوا منه يتقدمهم جندى الشرطة الذى تحدث مع جندى الحراسة على البوابة فتركهم يمرون ، دلفوا إلى بوابة الكتيبة ومنها إلى حجرة شئون الأفراد ، تطلع إليهم مساعد تعليم الكتيبة فتقدم منه جندى الشرطة بالأوراق ، تم التسليم والتسلم بسهولة ، جلس فى الحجرة وتقدم منه جندى الشرطة فسلم عليه وهمس : هل تريد شيئا ؟ شكره وطلب منه إخبار زوجته وأخته أن تذهبا .

غادره ورجع إليه مرة أخرى بطعام وسجائر . جلس وحيدا وأخذ يتطلع حوله ، كانت الحجرة بناء حجريا ، مطليا بالجير ، بها مكتب يحتل نصفها ،

علقت على الحوائط جداول بالألوان تحدد مهمات شئون الأفراد ، باقى
الحجرة امتلأ بالصناديق الخشبية ، بينما جلس جندي فى ركن الحجرة
يغسل سترته فى نصف جركن بلاستيك كبير ، وكان مساعد التعليم يلتقط
ستره الفسحة من فوق مسمار فى الحائط فقال له : تنام هنا حتى أجيء فى
الصباح وأحضرك . هز كتفيه دون أن يعلق ، كان مأخوذاً وشعر برهبة
المكان ، ها هو ذا هنا مرة أخرى ، لا شئ تغير : الجدران الصماء ، والطلاء
البيج المغير ، مكتب قائد الكتيبة على ربوة عالية فى مواجهة شئون
الأفراد ، الحجرة التى على يمينه مكتب العمليات غادر الصول المكتب سريعاً
ليلاحق بالجهاز ، لا أحد الآن فى المعسكر إلا الخدمات والنووية ، عرف
من الجندي أنهم سوف يتركونه هكذا عدة أيام دون تحضير ، يفعلون ذلك
مع العائدين من هروب ، إذا التزم وظل جالساً فى المعسكر تبدأ
الإجراءات ، أما إذا هرب مرة أخرى ، فبركة يا جامع ، أضاف الجندي :
تستطيع الذهاب الآن إلى بيتك وتحضر باكراً ، فلا أحد يهتم بك الآن .
تشبث بالفكرة ، وشرع فى تنفيذها ، بعد ثلاث ساعات من الركوب
المواصل أخيراً حط بين أحضان زوجته التى فوجئت ، كانت خارجة نواً
من الحمام بقميص نوم أبيض ، شعرها المبلول بلل وجهه ورقبته ، استقبلها
الحار أنساء تعب ، أخذ دُشاً بارداً وغير ملائمه ، أكل بشرامة وتحدث مع
زوجته ، ثم اضطلع بجانبها حتى شقشقة الفجر الأولى فعاد مرة أخرى
قبل أن يقطن أحد لغايه فى الصباح ، انتشر خبر عودته من هروبه الطويل ،
سمع عن قائد الكتيبة الجديد ، لكنه لم يستدعه لبيت فى أمره ، وظل
يذهب إلى البيت بعدما يغادرون المعسكر ويعود قبل طابور التمام ، فى

إحدى المرات تزود برسالة من قائد الكتيبة القديم للجديد ، قال إنه أحد تلامذته ، وأنه خدم تحت قيادته ولن يرفض له طلباً . عند عودته للكتيبة كان يتحسس الرسالة في جيبه طوال الوقت ، وشعر باطمئنان للمرة الأولى ، كانت مفتوحة فقرأها عدة مرات :

بسم الله الرحمن الرحيم

أخي العزيز / محمد بك غريب

تحية طيبة وبعد

كيف أحوالكم ، والله لكم وحشة ، ولك مدة لم تتصل بي فلعل المانع خيراً أرجو الاتصال بي للاطمئنان عليكم وعلى أسر بكم الكريمة ، وأعرفكم بأن حامل هذه الرسالة يخصني أمره ، وله ظروف خاصة سوف أشرحها لكم حين نتقابل ، وكل ما أرجوه منكم تسهيل مهمته ، والتعاطف مع ظروفه ، وخدمته إن أمكن ، وربنا ما يحرمنا من أياديكم البيضاء وفعل الخير .

وتقبل مودتي ، ،

أخوكم

مقدم عبد البصير

كان جالساً في مكتب التدريب حين دخل عليه الصول مساعد التعليم مشيراً له : هيا بنا أدورك لمكتب القائد . سار بجانبه حتى باب المكتب ، تركه وغاب بالداخل دقائق ثم نادى عليه أمراً : تقدم يا جندي ، صفنا .. انتباه .. ثابت . تقدم الصول من قائد الكتيبة ووضع الأوراق أمامه ووقف (انتباه) صائحاً : تمام يا فندم . كان جالساً خلف مكتبه يدخن ، يقترب من

منتصف الثلاثين بوجه أبيض مشرب بحمرة تميل إلى السمار ، وشعر أشقر قصير ، وعينه الزرقاوان أخذتا تتطلعان إليه ، وبدا وجهه وسيماً وهو يتنسم قائلاً : حمداً لله على السلامة ، وما الذى جعلك تقطع أجازتك ؟ لم يجب ، فضحك وبدت لهجته التهكمية مريحة إلى حد ما ، فأخرج الخطاب من جيب سترته وقدمه له ، وقف صامتاً ، بينما فرد الخطاب ورجع بظهره إلى كرسيه المتحرك وأخذ يقرأ حتى انتهى فتطلع إليه : من أين تعرف المتقدم ؟ قريبى يا فندم . وسيادتك تقرب له إيه ؟ ابن خالتى . كده ! طيب ، بص بقى يا حضرت هالله هالله على الجد ، والجد هالله هالله عليه . مش كده ؟ أوماً إليه فأضاف عاين تخلص أنا هاساعدك ، أما لو عاوز تلعب بدليك قوللى من دلوقت نفرضها سيرة ، إيه رأيك ؟ بدأ الحديث يأخذ شكلاً ودياً وقال له : اجلس . فجلس ، وصرف الصول ولم يعد غيرهما فى المكتب . قال له : احكى لى حكايتك بقى .

لما انتهى من حكايته ظل القائد صامتاً لحظات ، ثم وقف فجأة وانكأ بيديه على المكتب ، وقال : طيب شوف يا سيدى ، المفروض أنك تدخل الحيس اليوم لحين محاكمتك ، لكن أنا مش هاعمل كده ، إنت باين عليك مش وش بهدلة ، هاتقعد فى مكتب التدريب ، أمام مكتسى ، وعلى مسئوليتى ، وعاوزك تبيض وشى ، بلالا انصراف .

فى مكتب التدريب لم يكن يفعل شيئاً ، فقط يدخل ويظل منتظراً حتى تحين الساعة الثانية فينطلق الجهاز عائداً بهم إلى بيوتهم ، وينطلق هو أيضاً عائداً إلى بيته دون استئذان أحد ، كان يعرف أنه بعد الثانية لا يوجد تمام ، التمام يأتى عند توزيع الخدمات فى المساء ، أما هو فمن المفروض أن تمامه

فى الحبس ولىس فى الكتىبة ، لذا ، كان مطمئناً لما يفعله ، وقبل ظاهور الصباح ، يجدونه متسكعاً أمام المكاتب . فى ذلك اليوم ، لمح قائد الكتىبة واقفاً أمام مكتب التدريب ، أشار له ، فجرى نحوه . قال له مبتسماً : تعرف أن الدنيا مقلوبية عليك ، وأمن اللواء أرسل لوضعك فى الحبس ، لكن أنكرتك . وضع يده على كتفه ونظر إليه : بص يا بنى ، أنا هاخدمك خدمة عمرك ، عارف السلك ده - وأشار بأصبعه إلى سلك شائك يحيط بالمعسكر - توجد فتحة فى السلك دور عليها تجدها ، اخرج منها ، اوعى تخرج من البوابة ، الأمن بمسكك ، أول ما تخرج أديها السكة مد يده فى جيبه أخرج كارتاً : الكارت ده فيه غمترى فى البيت ، اتصل بى وطمنى إنك وصلت يلاً مع السلامة . مشى مسرعاً ناحية السلك فزعق محذراً اوعى بمسكوك على الطريق ، أنا معرفكش ، فاهم لم يشعر بالخوف كما شعر به هذه اللحظة ، ظل يبحث حتى وجد فتحة السلك فاجتازها ، وتلفت يمينا ويسارا فلم يجد أحداً على الطريق ، ولمح معسكراً مهجوراً فى الناحية الأخرى ، هل يجتاز الطريق ويمر من خلال هذا المعسكر ؟ لكنه مكشوف وسوف يلمحونه على البوابة ، أيضاً التحريات المنتشرة فى المنطقة سوف توقفه ، ما الذى يفعله الآن ؟ ثلاث كيلو مترات لابد من قطعها مشياً على الأقدام فى منطقة مكشوفة حتى يخرج إلى الطريق السريع الذى لا يخلو أيضاً من رجال الشرطة والتحريات ، جلس على حجر محتتماً بسانتر الخدمة متطلعاً إلى الطريق ، لولمحه أحدهم الآن ، فسوف يدخل مرة أخرى من السلك ويختفى فى كتبته . المرات التى ذهب إلى البيت لم يكن يعرفه أحد ، أما الآن ، فالجميع يبحثون عنه ، وربما كانوا يحملون صورته ،

وإذا رجع كتيبتة فسوف يجثون لأخذه ، ولن يحميه قائد الكتيبة ، وفي الحبس ، سوف ينتظر إجراءات المحاكمة التى قد تطول عدة أشهر يقضيها محبوساً . كان الحل الوحيد أن يعبر الطريق إلى الجهة الأخرى أسرع من البرق ، يختبئ فى المعسكر المهجور حتى حلول المساء . قام وأخذ يتلفت حوله ، ولما اطمأن جرى إلى الناحية الأخرى ، وجد حجرة على البوابة الرئيسية معرشة بصفائح الصاج ومبنية بالحجر ، وكان هناك سرير من الحجر أيضاً فوقه بطانية قديمة ، فى مواجهة السرير شباك صغير يطل على الطريق ، جلس وتسمرت عيناه على الطريق من خلال الشباك ، اختبأ عدة مرات عند سماعه أقداماً على الطريق . مرّ الوقت بطيئاً قبل أن يحل الظلام، تسحب خارجاً ومشى خلال المبانى المتهدمة فى المعسكر حتى وصل نهايته ، الآن عليه عبور الطريق الرئيسى ، سوف يصبح مكشوقاً أمام عيونهم ، خاصة وهو الوحيد الذى يمر على الطريق الآن . وقف وتلفت حوله فلمحها ، عربة كارو لا يعرف من أين جاءت ، كانت محملة ببراميل مياه ضخمة ، مرت أمامه فلم يتردد ، قفز فوق العربة فى سيرها فانتهت من الطريق الرئيسى واجتازت بوابة الشرطة دون أن ينتبه لوجوده أحد ، كان قلبه يرجف من احتمال تفتيشها ، لكنها مرت بسلام حتى ابتعدت بمسافة كبيرة فقفز منها ، وقف على الطريق السريع وأخذ يشير للعربات ، توقفت إحداها فركبها ، أشعل سيجارة ونفث دخانها ببطء ، أخرج الورقة المدون عليها تليفون الرائد وتسلى بقراءة الأرقام ، عليه الاتصال به فور وصوله ليعرف منه ما الذى يفعله بعد ذلك ، وضعها فى جيبه مرة أخرى وأغمض عينيه وراح فى النوم ، لم ينتبه إلا حين وصلت العربة ميدان رمسيس .

وضع سماعة التليفون وأخرج من جيبه خمسين قرشاً أعطاهما لصاحب المكتبة ثمناً للمكاملة ، لم تستغرق دقيقتين ، قال له : أنا يا فندم . فطلب منه الحضور فوراً ، وصف له العنوان بدقة ، فى الطريق إليه فكر فيما يمكن أن يطلبه منه ، كانت شقته تقع فى الدور السادس ، العمارة ضخمة تطل على النيل مباشرة ضغط الجرس ففتح له ، كان يرتدى بيجامة مقلمة ويضع فى فمه سيجارة ، مد يده وسحبه إلى الداخل ، أجلسه فى الصالة وجلس أمامه واضعاً ساقاً فوق أخرى ، تحدث ببساطة ولم تكن له رهبة الكتيبة ، قال : أنت تعرف أنهم جاءوا وسألوا عنك بعد خروجك من مكتبى ، وقلت لهم ليس عندي جندي بهذا الاسم ، أنا خدمتك خدمة عمرك . جاءت فتاة بصينية شاي وضعتها أمامهما ووقفت ، أشار إليها : المدام . هب واقفاً ومد يده سلم عليها ، كانت جميلة ، شقراء مثل زوجها ، لكن فارق السن بينهما بدا كبيراً ، أعطاهما عمراً لا يزيد عن العشرين ، لفت نظره ، وهى تغادر ، بنظرون الإسترتش المحبوك على ردفها وساقها الممتلئين . تركه ودخل إحدى الحجرات ، وركز هو فى احتساء كوب الشاي وتأمل الشقة ، كانت كبيرة ، لمسات الجمال واضحة فى أركانها ، ثلاثة أطقم أنثريه وضعت فى (الريسيشن) ، حوض أسماك كبير وضع على «أرج» ، بعض أصص الزهور ونباتات الزينة وزعت فى الأركان مع إضاءة منبعثة من أباجورات صغيرة الحجم . عاد حاملاً عدة أوراق فردها على الترابيزة أمامه : شوف يا سيدى ، هذه التصميمات لعدة موديلات من البلوفرات ، أريدك أن تنسخها ، تعرف أوماً بالإيجاب فأكمل : عندي مصنع بلوفرات

صغير ، وأريدك أن توزع لى على قد ما تعرف . ثم تركه وغاب مرة أخرى، وعاد حاملاً عدة بلوفرات موضوعة فى أكياسها ، هذه دسنة ، وزعها وأحضر باكراً بالنقود ، فأهم ؟ فى طريقه إلى بيته فكر : هذا هو الثمن إذن ، لا بأس ، لن يعدم وسيلة فى بيعها ، سوف يعرضها على أصدقائه بنفس ثمنها ، ويعرض بعضها على حماته فهى صاحبة بونيك ملابس . ابتسم وتنهّد ، فقد أفلت من حياة الكتيبة والسجن وسخافات الجيش ، أما التصميمات ، فسوف يعطيها لأحد أصدقائه ممن يهوون الرسم ، وإلى أن تحين إجراءات المحاكمة سوف يكون بائع بلوفرات فى مصنع يملكه ضابط فى القوات المسلحة له زوجة جميلة ، انحصرت علاقته بالجيش فى قائد كتيبة ، وكانت مقابلاتهما تتم بانتظام فى منزله ، يذهب إليه يومياً بالنقود التى باع بها البلوفرات ، ويعود بأخرى جديدة . فى أحد المرات قال له : سيرحل اللواء كله لعمل مشروع ضرب نار ابتداء من غد ، وأنا سويت حالك لتكون هنا ، ولكن عليك بالحضور كل يوم ، وستعطيك المدام البلوفرات وتسلمها النقود .. مفهوم ؟

فى اليوم التالى كان واقفاً بطرق الباب ، وكانت هى التى فتحت له ، بدت فاتنة بجسد أبيض يشع ضوءاً تحت روب حريرى أسود محبوبك ، قالت : تفضل . لكنه لم يتزحزح وصعد الدم إلى وجهه فارتبك ، تأملته لحظات قبل أن تغيب ثم تعود بالبلوفرات ، قال لها : غداً أحضر لسبادتك النقود . شبعته بنظراتها حتى غاب فى لفات السلم . فى طريقه إلى منزله ، فكر فيها ، واستدعى فى نفس اللحظة أخرى تشبهها كثيراً ، وظلت المقارنة منعقدة بينهما حتى انتصر لعفاف ، الأكثر أنوثة وتوهجاً ، لكن جمالها كان

وحشياً بلا رتوش ، أما رغبته ، فكانت مستعرة دوماً ، تعرف عليها عند أبيها ، كان جاره ، يذهب إليه ليلعب الطاولة ويتبادلان الحديث ، رجل عجوز وحيد ، تزوج ثلاث مرات وأنجب قبيلة ، كانت عفاف ابنته الصغرى من زوجته الأخيرة ، كل نسائه تركته وسافرن إلى الخليج ليعملن خادماً ، حتى عفاف طلقها زوجها وسافر للعمل في العراق فبقيت مع أبيها تونس وحده ، كان كلما ذهب إلى أبيها ، وجدها تنظر إليه من فوق السريـر الوحيد في الحجرة ، كان جسدها الممدد جميلاً وأسطورياً ، واعترف لنفسه فيما بعد أنه لم ير أنثى أو ذقناً يمثل هذه الدقة وهذا الجمال ، سرعان ما أخذت منه موعداً في غفلة من أبيها ، وتقابلا عدة مرات بالخارج ، ورأى في عينيها عطشاً لا يرتوى للحب ، انفتحت معه على اللقاء في الحجرة بعد خروج أبيها للعمل ، لن تغلق الباب وراءه ، بل تتركه مفتوحاً ، في السابعة والنصف صباحاً كان يدفع الباب برفق ، دخل وأغلقه وراءه بالترسـاس ، ولابد أنها نامت ، فقد وجدها مغلقة العينين ومدة يكامل أنوثتها ، عارية إلا من سوتيان وكُلّت أسودين ، فتألقا على جسدها الأبيض المحمر ، صعد بجانبها وبدأ مداعبتها ، ففتحت عينيها ببطء كمن لم يفاجأ بما يحدث ، بل تمطت وتناوبت بإغراء ، ثم احتوته بين ذراعيها وسرعان ما اعتصرته في بدنـها الملهوف . ظلّا يمارسان لعبتهما حتى أحس بالإرهاك ، أما هي ، فقد كان جسدها يتلوى تحته ويشهق بالرغبة ، وهو يتلون ويتشكل بألوان الطيف ، ولم تتركه إلا حين وثقت من عودته غداً في نفس الموعد ، وبالفعل كان على باب حجرتها صباحاً ، هذه المرة وجدها عارية تماماً ، ولم تكن نائمة أخرجت منابع اللذة من مسام جسده ، أرشدته إلى مكانها هي

أيضاً ، فظنَّ صوتَ رغبتيها في أذنيه عالياً ، فظن أن الدنيا كلها سمعتها ، ظل على علاقة بعنّاف فترة طويلة حتى جاء اليوم الذي فانتخته في أمر الزواج ، فجبن وخاف ، ممن كان خوفه ؟ ولم تره بعدها أبداً .

حين ذهب إلى بيت الرائد حسب الموعد ، فتحت له زوجته ودعته للدخول ، قالت قبل أن يجلس : أنا باعمل شاي ، تشرب معي . أوماً موافقاً ، وأخذ يتابع أسفل ظهرها ببروزاته وتموجاته الرجراجة ، كانت ترتدى «جيب» قصيراً أسود على بلوزة بيضاء مفتوحة عند الصدر ، وشعرها الأشقر انسب ناعماً فوق ظهرها وصدرها . أحضرت صينية الشاي وانحنت تضعها أمامه فشاهد جزءاً من صدرها متكوراً أمامه ، هل كانت تتابع نظرات عينيه في تلك اللحظة ؟ نظرت إليه وعلى شفتيها وضعت ابتسامة مبهمّة ، جلست في مواجهته وأخذت تصب الشاي : محمد قال لي إنك متزوج .. صحيح ؟ هز رأسه موافقاً ، فتابع : من منكما الأصغر ؟ هي .. عندها ثمانى عشرة سنة وأكبرها بست سنوات . أنا أيضاً عمري مثلها ، لكن محمد يكبرني بكثير .

عندى سؤال ونجاوبني بصراحة - قالت ووضعت كوب الشاي أمامه ، وترددت قبل أن تقول : واحدة صاحبتى تقول : إن الرجال الطوال لهم .. أقصد يعنى أعضاءهم هي أيضاً طويلة جداً . انشغلت بتقليب كوب الشاي الموضوع أمامها ، وشعر بها تنظر إليه من تحت لتحت ، كان السؤال مفاجئاً فارتبك ، وشعر بالدم يصعد إلى وجهه ، وأخرج من جيبه نقوداً وضعها أمامها ، ومررت لحظات لم يعرف كيف يتصرف ، وبتلقائية وقف وقال بتلعثم : سيادتكم تأمرينى بأى شيء ؟

وأحست بارتباكها فوقفت هي أيضاً وضحكت : والنشأى ؟ قال وهو يخطو ناحية الباب بلهوجة ، مرة أخرى ، وكاد يخرج حين سمع صوتها : اسمع ، البلوفرات لم تجهز ، عد غداً الساعة الثامنة مساء . طوال الطريق ظل سؤالها يدور في ذهنه ، كان يبحث عن معنى لما قالته ، امرأة جميلة تعيش حياة مترفة ، ولها زوج وسيم له وظيفة محترمة ، يملك سلطة ما ، تترك كل ذلك وتنظر إليه هو الفقير المعدم ، إن زوجها بكلمة منه يستطيع وضعه في السجن ، ما الذي يملكه ولا يملكه زوجها ، وهل تحاول إغواءه بذلك السؤال ؟ أسئلة كثيرة طرحها على نفسه ، لقد تصنع عدم الفهم والخجل حتى لا يقع فريسة سهلة ، وما أدراه أنها زوجها بنصبان له فخاً حتى يطمئنا لدخوله وخروجه ، لكنه أيضاً شعر بالزهو ، وازدادت ثقته بنفسه ، فإن له جسداً رائعاً تشتهيهِ كل النساء ، ألم تتغزل فيه عفاف ، وهما على الفراش ، قالت له : تملك جسداً مثل مانيكان ، وذلك الطول الفارع ، ولك عينان سودوان واسعتان بأهداب وحواجب لا تملكها أجمل امرأة ، من لحظتها وهو يتعهد جسده بالاهتمام الواجب نحوه ، كان يتغذى جيداً ، وينام جيداً ويمارس بعض الرياضة ، شعره الأسود الناعم كان يسرحه ويفرقه عند منتصفه فيبدو وسيماً بغمازتيه اللتان لا تظهران إلا عندما يضحك ، قال لنفسه يطمئنها : لا تتعجل الأمور يا فتى ، ودع المسائل تجري في أعتتها ، فمن يعرف ؟

في المساء ومع اقتراب الموعد ، أخذ دُشّاً ساخناً بعد أن حلق ذقنه ووقف أمام المرأة يتأمل جسده عارياً من خلف وأمام ، وأخذ يتحسس برفق فسرت قشعريرة لذة في بدنه ، وأخذ عضوه ببنض مثل سمكة خرجت لتوها من

الماء ، كان مستثاراً ، وظل طوال الليل يحلم بهذا اللقاء ، تخيلها على فراشه عارية تتلوى في أوضاع مختلفة حتى الصباح ، وتخيل لقاءهما الخطوة الأولى هل تكون منه ؟ أم يدعها تبدأ هي ؟ تلمح فترمي الكرة في ملعبه ، أم أنها بجرأتها تقوده مباشرة إلى الفراش ، كان على يقين مما سوف يحدث .

كانت الساعة تعلن الثامنة تماماً حين دق جرس الباب ، بعد لحظات ، فتحت له ودعته للدخول ، كانت ترتدى روبا حريمياً أحمر ، أجبكته على جسدها فلف قوامها وأظهر رشاقته ، ودهمته رائحة ياسمين مسكرة ، خطت برشاقة أمامه تقوده إلى الأنتريه ، فرأى رديها يرقصان طرباً . جلس وجلس أمامه واضعة ساقيها فوق أخرى فانفلتت من طرف الروب بيضاء ناصعة ممتلئة وملفوفة . قالت : تشرب إيه . أفلت طرف الروب فجأة فاندلق صدرها منتصباً أمامه ، حبكته مرة أخرى وهبت واقفة ، اقتربت منه ونظرت إلى بنطلونه ، كان منتفخاً ومقيبلاً فانفجرت شفتاها القرمزيتان عن ابتسامة إغواء ، قالت : تعالى شوف مصنعا الصغير ، سحبت من يده إلى الداخل ، كانت أصابعها طرية دافئة ، استكانت في كفه الكبيرة ، وبحركة بدت عضوية لمست عضوه فرأته صلباً قوياً ، وسمع شهقة خافتة صدرت منها ، أرته حجرة صنع البلوفرات ثم أخذته من يده فانساق وراءها مستسلماً ، اتجهت به إلى حجرة نومها ، أوقفته على حافة السرير والتصقت به ، همست : أنا النهاردة هافترسك . كان هو مستسلماً لها ومنوماً ، ووقفت أمامه عارية ، وعلا صوتها في استنارة كاملة وأخذت تخمش ظهره بأظافرها فاندفع إليها بكل رجولته ، وشهقت شهقتها الأخيرة قبل أن ترغمى على صدره وتدفن رأسها في إبطه .

أفاقت بعد ربع ساعة فرفعت رأسها وقبلته ، ودفنت رأسها مرة أخرى في صدره ، وهمست : يبدو أن كلام صديقتي عن الطوال صحيح ، ضحكت وأردفت : الواحد ده للتجربة ما بتحسبش ، وأخذت تدغدغ صدره وعنقه بشفتيها ، وأخذنا يتمرغان على الفراش حتى فرغا ، وبدت هادئة بجسماتها الأريستقراطية بعد أن ارتوت . قالت : تعرف أن دى المرة الأولى من خمس سنوات . أجمسته المفاجأة فأكملت : نعم ، محمد مالوش ، وهو يعاليج حتى الآن بلا فائدة .

قامت وأخذته من يده ، ووقفا تحت الماء الساخن سويا ، ذكرته بأمه وهي تدعك جسده وتدلكه ، ثم رشت عليه من عطر زوجها ، وهي تلبسه ملابسه وهمست له : اذهب الآن وتعالى غداً ، فلن أتركك حتى أشبع منك .

لم يرغب في الذهاب للمنزل ، وخطر بباله أن يجلس على الكورنيش قليلاً ، كانت أضواء النيون المتبعثة من الفنادق والعوامات تتلألأ في مياه النيل ، وهبت نسمة هواء طرية أنعشته ، كان ذهنه صافياً فسرح في ماء النيل المنساب برقة ، وتعجب لتلك السكينة التي تجتاحه الآن ، تلك الحياة التي تاق إليها ، حياة الناس الذين لا ينتمون إليه ، الناس التي تعيش في أضواء الليل الملونة والنسمات الطرية المنعشة والسهرات الحمراء المعطرة ، حياة تختلف عن حياة ناسه في الأحياء الشعبية ، كان يعرف أن القاهرة تحيا حياتين ، واحدة بالنهار ، وتلك القاهرة العرقانين الذين يجرون صباحاً على أرزاقهم ، القاهرة الازدحام وعادم السيارات والأتربة والغبار والعرق وصهد الشمس ، تلك القاهرة قاهرة ، أما القاهرة الأخرى ، القاهرة المعز ، فهي أضواء النيون الملونة والأنفاس المعطرة وعربات المرسيدس ونساء يتحمن

بالشمبانيا واللبن الحليب ويتمرغن فوق صدور الرجال ، قاهرة رجال المال والأعمال والعوامات والشقق المفروشة وهمسات المومسات على أجساد عرب الخليج وأقدام الراقصات فى شارع الهرم وعماد الدين وجامعة الدول العربية المغطاة بأوراق البنكنوت والبارفانات الباريسية ، إلى أيهما ينتمى الآن ؟ إلى نساء ملوثات بمنى عشاقهن ؟ أم إلى نساء ينتظرن أزواجهن وهم يحملون طعام العشاء، دائماً ما كان يقول لنفسه عند عبوره من حيّه الشعبي العشوائى إلى الخارج والعكس أنه عبور بين حضارتين، حضارة تنتمى إلى الليل ، هو يعشق الليل ، الليل هو الشعر والموسيقى ورجال متخمون وعربيات فارغة ، وفنادق تسهر حتى الصباح تراق فيها زجاجات الشمبانيا والويسكى ونساء جميلات عاريات ، وجوههن تضج بالشهوة يتحمن بمنى عشاقهن وهمسات عاشقة وتأوهات الشبق على فرش ناعمة سابعة فى إضاءة خافتة ، الليل فى حيّه الشعبي هو الفضيحة الكاملة ، هو عرى من لا يجد ما يستره ، والنائم على لحم بطنه ، والارتقاء على البلاط استسلاماً للنوم بعد يوم عمل شاق ، هو رائحة العرق والأحنكة الجائعة والبحث عن مأوى ، بينما الصباح هو الجحيم بعينه ، أشعل سيجارة وأخذ نفساً عميقاً نفثه ببطء ، ما هى خطواته القادمة ، تلك المرأة جبرته فى علاقة لا يعرف مداها ، إنها قبلتة موقوتة من الشهوة لا ترتوى . ما مصيره إذا عرف زوجها ؟ وكمن يشاهد فيلماً سينمائياً يشارك فى تأليفه أخذ ذهنه يعمل بشكل عجيب ، أخذ يتخيل بعض السيناريوهات لما يمكن أن يحدث إذا اكتشف زوجها علاقتهما ، وشعر بلذة وهو يتأمل تلك المشاهد :

المشهد الأول : يفتح الباب بالفتاح ، ويدخل عليهما حجرة النوم فجأة ، يقف على رأسيهما ويراهما عاريين ، يتابع ببصره مؤخرته صاعدة هابطة فى عرى زوجته ، يخرج مسدسه ويفرغه فى جسديهما فيموتا .

المشهد الثانى : يخبره البواب بحضوره كل ليلة ومبينه حتى الصباح ، يطرق الباب فتفتح له زوجته بالروب على اللحم ، يتجه إلى حجرة النوم ويبحث عنه ، يجده تحت السرير عارياً ، يخرججه ويسلمه إلى قسم الشرطة عارياً كما ولدته أمه .

مشهد ثالث : يقطع أجازته فجأة فيرجع رجوعاً مفاجئاً إلى المنزل ، يخرج المفتاح ، يبحث عن زوجته فلا يجدها ، لكنه يسمع صوتاً آتياً من حجرة النوم ، يتجه إليها على أطراف أصابعه ، يدفع الباب فجأة فيجد زوجته عارية فى حضنه ، يقف مندهشاً ومحملقاً فيهما ، ينتبهان له فيجريان إليه يكتفانه ونيهالاً عليه ضرباً حتى يلفظ أنفاسه ، يحملان أشياءهما ويغادران البلد إلى أوروبا حيث يتزوجان ويقيما سوياً إلى الأبد .

مشهد أخير : يقوم باستدعائه فجأة إلى المكتبة، يوقفه أمامه ، يزق فيهِ: أنت متصور أننى لا أعرف ما تفعله ؟ سوف ترى الآن عقابى ، يأخذه من يده إلى السجن ، يوصى عليه الجنود والحراس والمساجين بضربه ليل نهار ، يذيقه من العذاب ألواناً ، يقرر الانتقام منه فور خروجه من السجن ، تنتهى مدة عقوبته ويخرج ، يترصده حتى تحين له الفرصة ، سوف يخطفه ويعلقه من قدميه ويمارس الجنس مع زوجته أمامه ، يسجد له يستعطفه ويرجوه أن يتركه ، ولن يتركه قبل أن يطلقها ويتزوجها .

وصل إلى بيته فوجد زوجته في انتظاره ، خاف أن تحس بعملته فانتعل
مواضيع مختلفة ، حدثها عن متاعبه مع الرائد ، وأنه يعتمد إتعا به ، يطلب
منه المزيد من العمل ، قال إنه طلب منه التأخر كل يوم في منزله ، وأنهم
يعملون هو وآخرون حتى وقت متأخر ، وقد يتطلب الأمر المبيت يوماً أو
يومين لمضاعفة الطريجة ، خاصة وأن زوجة الرائد عند أمها وتركت بمفرده .
أخذت تحته على عدم الزهق ، وأن يسمع كلام الرائد حتى ينتهى وتنزاح
الربة . كان يخاف من فراسة زوجته ، حدثته يوماً عن جلسة جلسها في
بيت أحد أصدقائه ، وصفت له الشقة بما فيها ومن فيها وكأنها تعرفها أو
كانت معهم ، ولم يكن ذلك إلا حلمًا رأته في نومها ، لقد صدقها ورحبها
ففراسة المحب الصادق لا تخيب ، هكذا قرأ في «طوق الحمامة» .

(7)

جلس على مقهى قريبًا من بيت الرائد وطلب شايًا ، أخذ يتأمل الوجوه
من حوله كمعادته كلما جلس في مكان لأول مرة ، كان قد اتصل بها حسب
الموعد ، فقالت تعالى بعد ساعة ، لم تشأ محادثته في التلفزيون ، بل أنهت
المكالمة سريعًا . قال لنفسه هل يكون الرائد قد حضر ، لقد شعر بتوتر في
نبرات صوتها ، تلهى بشرب الشاي ولا يدري لماذا نظر خلفه في تلك
اللحظة ، رأى شخصًا جالسًا يتصفح الجرائد يرتدى بذلة وكاسكينة فوق
رأسه ، وتذكر أنه رأى هذا الوجه قبل الآن . وابتسم ، إنه مخرج شهير رآه
كثيرًا في التلفزيون ، مازال فيلمه الأخير يعرض في دور السينما . نظر إليه
مرة أخرى فانتبه له وأحنى رأسه وابتسم . وبحركة بدت طبيعية طوى

الجرائد وانتقل إلى جواره . مد يده فسلم عليه : على الدبكي . طبعاً
يا فندم، المخرج الكبير ، رأيت حضرتك في التلفزيون ، كذلك شاهدت
ثلاثة أفلام من إخراجك . هز المخرج رأسه وبدت على وجهه علامات
دهشة : كدة .. تعرف إن وشك شدني ، كمخرج طبعاً ، فوتوجنيك خالص
ويسرق الكاميرا ، مافكرتش تمثل ؟ عراه الخجل وهو ينظر إليه يكاد يأكله
بعينه . لا في الحقيقة لم أفكر . دا انت وسيم خالص ، طول بعرض ما شاء
الله ، شفت فيلمي الجديد . هز رأسه نفياً فأكمل أنا عندي نسخة الماستر إذا
تحب تشوفها بكرة في نفس المكان . والبيت قريب من هنا . نظر إلى ساعته
فوجد الوقت حان ، استأذن وانصرف مؤكداً على الموعد .

فتحت له الباب ولاحقته بقبلة طويلة ، وقادته إلى حجرة النوم ، قالت
وهي تجلس أمام المرأة تضع بعض البارفان ، بعد أن خلعت الروب : آسفة
يا روحى ، كانت أخت محمد عندي لما طلبتنى ، طلت شفتيها بروج
بنفسجى مثل لون القميص الذى ترتديه ، ولما انتهت اقتربت منه وطبعت
قبلة فوق رقبته ثم تركته وأشعلت له سيجارة ، ولها ، وضعتها في فمه
طوقها بذراعه وأخذ يفرك حلمتها النافرة تحت القميص . قال : انتظرت
على مقهى قريب من هنا ، تعرفى قابلت من ! المخرج على الدبكي .
قالت : جارنا ! عمارته جنب عمارتنا . ابتسم : وعرض على العمل في
السينما وقال : إن وجهي فوتوجنيك . ردت باسمه : طبعاً يا حبيبي وشك
فوتوجو . وضحكت بدلال : والمقطع الأخير اتركه لى ضمته إلى صدرها
وضغطته . وهمست : تعرف ، وأنا جنبك ، بأحسن أن الدنيا دى كلها
ملكى ، وساعات أتمنى أن محمد يختفى من الوجود ونفضل أنا وأنت

وبس. لكن ساعات ثانية أحس نحوه بالإشفاق والعطف ، فالذنب ليس ذنبه . أرادت تغيير الحديث فقالت بتمثيل : ما رأيك يا سيدى ، عبدتك وجاريثك عادة تعزملك على قضاء يومين فى الإسكندرية ؟ اعتدلت وتصنعت الجذ : بص يا سيدى ، محمد مش هاييجى قبل أسبوع ، والشقة بتاعتنا هناك فاضية ، تيجى نعملها والنبي . أخذت تقبله بدلال ، نفسى تبات معايا طوال الليل وماتسبينش . أدهشتها موافقته السريعة حتى إنها ارت فوقه من شدة فرحها ، وبدت كطفلة فى أشد حالات المرح . قالت : من بكرة قال : أن لديه موعداً مع المخرج غداً فى مسائل شخصية ، وغمز بعينه ، خليفها بعد بكرة . موافقة يا سيدى ، ثم همست فى أذنه يلاً بقى عازوة أشبع منك .

كان مواعده مع المخرج فى العاشرة مساءً ، لكنه وصل بعد الموعد بنصف ساعة ، ولدهشته ، فقد وجده فى انتظاره ، هب واقفاً فور رؤيته وسلم عليه بحرارة ، اعتذر له عن التأخير ، فقال له : ولا يهمك ، المهم إنك جيت ، تحب ترتاح شوية ولا تمشى ؟ أخذه من يده وسارا كصديقين قديمين حتى دلفا إلى عمارة ، صعدا للدور الرابع حيث شقته . كانت حقاً شقة مخرج فنان ، ففى كل ركن فيها لمسة فن ، قاده إلى أنتريه وضع فى وسطه تليفزيون وفيديو على ترابيزة معدنية : تحب تشرب إيه ؟ بص يا حبيب قلبى ، أنا حببيستك من أول نظرة ، عندى ويسكى سكوتش وبراندى وحشيش . هز كتفيه : أى حاجة . تركه ودخل المطبخ أحضر كأسين وزجاجة ويسكى وقطعة حشيش أخرجها من ورقة السلوفان وأخذ يمسها بأصابعه حتى لانت ، وضعها فى سجائر وأشعلها ، كان سعيداً فهتف :

بص بقی ، لیسقط فیلمی الجدید ، أنا عندی فیلم لازم أرجعه بكرة ، ماتقولش لعدوك. ضغط أزرار الریموت فظهرت الصورة لفتاة عارية ، علق على الديوکی : هو دا الإخراج ولا بلاش ، مضت نصف ساعة شاهد خلالها عدة أفلام قصيرة ، وشعر بدوار من تأثير الحشيش والويسکی ، أحس به ، فقال : إيه .. مالک ، عملت دماغ . ضحك بلا معنى وهز رأسه : تسمحلی أخط راسی على حجرک ، أنا دا یخ زیک . انتبه للحظة أن شیئاً يحدث ، وفي اللحظة التالية کان المخرج یقوده إلى حجرة نومه ، ولدهشته فقد أطاعه وسار وراءه منتصباً ومهتاجاً .

(8)

فی الصباح الباكر كان واقفًا داخل محطة القطارات تحت الساعة ، ولم یطل انتظاره ، فقد لمحها قادمة برشاقة وقد ارتدت قميصاً وبنطلوناً أظهرها رشاقتهما وجمالهما ، حمل عنها حقیبتهما وسارا فی اتجاه قطار الإسکندرية ، كانت تضع على عینیها نظارة سوداء أضفت جمالاً على بشرة وجهها البیضاء ، وتذكر «نادية لطفی» فی فیلم النظارة السوداء فابتسم ، جلست ملتصقة به وأخذت كفه فی كفها ، فأحس دفئها ، قال : اذا أحضرت فی الشنطة ؟ قالت بدلال : لم أحضر شیئاً ، فقط ملابس داخلية وشوية قمصان نوم ، أصل نويت أجننک ، ومالت علیه وهمست : وهاجننک . لست فی حاجة لقمصان نوم حتى أجن ، ثم إنک ترتدینها کی أقوم بخلعها لك ، فما الداعی لارتدائها إذن . ضحکا ، وكانت تنظر إلیه بافتتان وامتزج عرق یده بیدها ، واستلقت برأسها على كتفه وأغمضت عینیها ، وأحس

أنفاسها حارة ومعطرة تلفح وجهه ، أشعل سيجارة وأخذ يرقب الطريق خلف الزجاج الشفاف ، إلى أى شىء يؤدى هذا الانسياق وراء تلك المرأة؟ يترك زوجته ويسافر فى طريق لا يعرف نهايتها ، وماذا لو عرف زوجها ، فإن مصيره معلق ببديه ، هز رأسه بعصبية ، كأنه يؤكد لنفسه أنه مسير فى هذا الطريق ، لو لم يخضع لرغبتها فمن يدرى ماذا كانت ستفعل ، كانت ستنفجر فى وجهه وتحطم مستقبله ، يكفى أن تلفق له عند زوجها فيجره إلى السجن ، أما الآن ، فإن قدرته على إشباع تلك الرغبة الجامحة تجعلها طيعة بين يديه ، تتمنى له الرضى يرضي ، رغم فارق الوسط الاجتماعى الذى يعيشه كل منهما ، فى بعض الأحيان يشعر بضالة نفسه أمام استسلامه لها ، لإشباع رغبتها التى لا تترنوى ، قالت له ذات مرة وهى بين ذراعيه إنها تريد أن تشربه ، وكانت كذلك بالفعل ، فهى تمتصه قطرة قطرة وببطء ، والآخر الذى قابله بالأمس ، لقد امتصه هو الآخر ، استغل انبهاره به ، وبالعالم السينما ، وربما سذاجته أيضاً ، وقاده إلى الفراش ، رغم أنه أبعد ما يكون عن الشذوذ ، لكن يكفى السقوط مرة واحدة ، الانحراف من أعلى ببطء شديد والاستمرار فى السقوط ، الاقتراب من الأرض سوف يأخذ وقتاً لكنه حتمى .

ظلت نائمة حتى توقف القطار فى محرم بك ، أيقظها ونزلا وأخذا عربة إلى المعمورة ، كانت الشقة لها مدخل خاص على البحر مباشرة ، تركها ونزل يشترى طعاماً لهما ، عند رجوعه ، فتحت له فتسمر فى مكانه ، كانت خارجة من الحمام ترتدى غلالة حمراء شفافة وقصيرة ، شعرها المبلول منكوش والماء يقطر منه ، أمسك خصرها وضمها إليه همست له :

هاتئبل لكنة التصق بها أكثر وطرحها على أرض الصالة .

قالت : مش قلت لك هاجنتك ، بس انت تسرعت ، دانا كنت عملاً
سيناريو يجن أسند رأسه إلى كرسى فوتيه وأشعل سيجارة ، وأخذ يتنفس
ببطء ، وغمزته له : جسمك كله اتبل ، هتاخذ برد كده . مديده ودسها فى
فخذيها وض : كله يهون عشانك . قامت تسوى نفسها فأخذ يتابعها ،
تلك المرأة شحنة متفجرة من ديناميت الرغبة تشتعل ذاتياً فى أى وقت ، ربما
كانت الآن فى نظره أجمل امرأة فى الدنيا ، أجمل حتى من عفاف ، تبعها
إلى الداخل ، وجلس على حافة السرير بينما كانت تسرح شعرها . اسمعى
يا عادة ، إيه رأيك أسيب مراتى وتسيبى الرائد محمد ونتجوز ، ممكن نعيش
فى أى بلد عربى . حدثته من خلال المرأة : أد كده بتحبينى قامت وخطت
نحوه ودفعته بيدها فى صدره فوق السرير ووقعت فوقه وهمست
وشفتاها تدغ.غان عنقه : وأنا مخلياك عايز حاجة يا حبيبى ، أنا ملكك أهو
اعمل اللى انت عايزه . ثم إن الوضع كده أحسن ؛ محمد يدفع ، وانت
جوزى وحبيبى ، وحتى لو عرف فلن يطلقنى ، محمد يحتاجنى بجانبه ،
ديكور فى بيته وأمام أصدقائه ، بس أنا خايفة لما تخلص موضوعك
ماشوفكش . لف ذراعه حولها وعصرها فى جسده : دا أنا بقيت مدمن
غادة . همست : يا حبيب قلب غادة .

بعد عودتهما ، وجد المخرج على الديبكي قد اتصل به وترك له رسالة ،
أعطاه موعداً فى وسط البلد فى فندق شهير فذهب إليه ، وجده فى انتظاره ،
رحب به بلهفة وقال له : وحشتنى ، انت سافرت ولا إيه ، طب مش
تقوللى . حدثه عن ليلتهما ، وأنها كانت رائعة ، نظر إليه : أتمنى أنها

تكرر. أحس بالغشيان من حديثه وأراد أن ينهيه فقال : اسمع أنا لا أنتمى لعالمك ، ولست شاذًا ، بل أحب النساء ولا أستطيع تكرار ما حدث . انشغل المخرج وظهر الغضب بين عينيهِ : يا حبيبي أنا فنان ، والفنانين لهم عالمهم الخاص ، ولهم نزواتهم ، ودى ضريبة النجاح . حدثه عن مخرج كبير آخر يفعل نفس ما يفعله ، وعن كاتب سيناريو شهير ، ومذيع لأمع ، وكثيرين فى الوسط الفنى والأدبى ولا أحد يدينهم ، ثم هل رأيت الفيلم الأخير للمخرج إياه ؟ إنه تاريخ لعلاقاته الجنسية مع الشباب . كان يوغل فى صمته ، بينما الآخر يحاول إقناعه ، وشعر بالملل فاستأذن وانصرف على وعد بقاء آخر ، كان يعلم أن هذا آخر لقاء معه ، وأن عليه تجنب الأماكن التى يتواجد بها .

اتفقت عادة معه على أن تدفع هى ثمن البلوفرات التى يأخذها منها ، قالت له لا تتعب نفسك ، خذها واركنها عندك ولا تشغل بالك ، وسوف أقول لمحمد : إننى آخذ منك ثمنها . كانت تعطيه ما يحتاجه من نقود ، فى بادئ الأمر رفض ، وكانت هى تلح عليه ، اشترت له ملابس على ذوقها الخاص وتصر أن يرتديها أمامها ، تقول له : أريدك أنيقًا دائمًا . فى إحدى المرات أهدته سلسلة ذهبية فأعطها زوجته وأخبرها أنه اشتراها خصيصًا لها ، أراد إرضاء زوجته بأية طريقة ، إحساسه بالذنب أنه مع الأخرى دائمًا جعله يتلمس رضاءها ، أما عادة ، فما كانت تتركه لنفسه لحظة ، تشرب رحيقه طوال الوقت بلا ملل ودون ارتواء ، وشعر بأنه غير طبيعى من تلك الرعشة التى بدأت تصيب أصابعه وذلك الألم فى مفاصله . ذكره ذلك بزم من مضى ، فهو يعرف تلك الحالة ، كان وقتها فى الإعدادية ، وكان

الوقت صيفًا ، وشقتهما الصغيرة تفح نارًا فيطلع إلى السطوح يذاكر حتى الصباح ، فى الجهة الأخرى من السطح سكنت حديثًا امرأة تدعى خيرية كان زوجها صولاً فى الجيش ولاعب كمال أجسام يدعى : شوقى . كان شوقى طويلًا عريضًا بارز الصدر والعضلات ، أما هى فكانت شابة صغيرة جميلة ولها أرداف بارزة مستديرة ، كان زوجها يمكث فى الجيش خمسة عشر يومًا ، ومثلها فى البيت ، وأنه سهران يذاكر أمام باب شقتها، قالت له: ممكن أطلب منك طلب ، تصحبنى الساعة خمسة الصبح . فى الخامسة صباحًا كان يدق بابها ، كرر الدق عدة مرات ، ولما لم ترد دفع الباب بيده فانفتح ، ورأها نائمة فى الصالة على مرتبة إسفنج ، عارية إلا من كُلت ، باقى جسدها كان مكشوفًا أمامه منتصبًا ورائعًا ، ورأى شعر إبطيها وعانتها أسود ناعمًا ، تصيب عرقه وشعر بدغدغة بين فخذه ولم يدر ماذا يفعل ، رجع إلى الباب ثانية وأخذ يدق عليه بقبضته ، غلملت وقامت نصف قومة وأمرته بالدخول ، رفض فألحت عليه ورفض ، قامت وفتحت الباب قلت لك ادخل متخافش مش هاكلك . رأته يتطلع إلى صدرها العارى فضحكت : مكسوف ، طب استنى . دخلت ارتدت رويًا وعادت إليه مرة أخرى ، خطا داخل الشقة وأحس بقلبه يرجف ، بينما توتر ما بين فخذه ازداد . أنا ساية الباب مفتوح على حسك وعلشان تدخل تصحبنى ، أصل شوقى فى الجيش ، تلاقيك يا حبة عيني تعبت من المذاكرة والسهرة ، كان صائمًا يحتضن كتابه فوق صدره ، سحبه من يده إلى حجرة النوم : بص بقى عاوزاك تفرد ضهرك وتريح شوية ، مافيش حد هنا . جاءت بزجاجة برفان دى بقى هاتنعمشك . فكت قميصه ووضعت له تحت إبطيه وفى وجهه

وصدره وكانت يدها تزيد توتره ، وضعت هى الأخرى خلف أذنيها وتحت إبطيها وبين فخذيهما ، وأخذ العرق ينز من جبينه بينما الدم اندفع إلى عروق رقبته ووجهه ، ضحكت : أنت ماشفتش واحدة قالعة قبل كدة ؟ هز رأسه نفياً فاقتربت منه وتحسست صدره : يعنى أنا أول واحدة تشوفها ، أوماً بالإيجاب . والنبي باين عليك خلبوص وهارى البنات ، طب إيه رأيك فيا؟ باين مش عاجباك . رفع رأسه ونظر إلى صدرها المنتصب أمام وجهه يكاد يلمسه . أخذت تمسه بأصابعها حتى أصبح مثل وتد ، سلت بنظونه وأدنته من فمها وأخذت تمتصه ثم انطرحت فوقه ، وصرخ لذة ونشوة ، وضعت يدها على فمه حتى هدأ هما الاثنان ، عند الباب همست له : لا تقل لأحد على ما حدث ، دا سرنا أنا وأنت بس ، أنت الآن رجلى وحبيى وكل يوم تصحبنى فى نفس الميعاد وفى كل يوم كان يقول لأمه إنه ذاهب للمذاكرة فوق السطوح ، وفى كل يوم بنام فى شقة خيرية حتى أدمنها فى الأيام التى يأتى فيها شوقى كان يشعر بالاكتئاب ، وكان ينظر فى الكتب بالساعات دون أن يعي شيئاً ، وأحست أمه بأن تغيراً ما حدث له ، بدأ يهزل ويصاب بآنيما ، كما أنه أصبح شاردًا دائماً ، تتبعته فى إحدى المرات ، وعرفت أين يذهب ، وبحكمة ، طلبت من خيرية ترك الشقة بهدوء ، وذهب هو إلى المستشفى ليعالج من آنيما حادة والتهاب فى الأعصاب ، وفى نهاية العام ، كان رسوبه محققاً . ظل خمسة عشر يوماً فى المستشفى يعالج من آثار خيرية ، لكنه لم يسلم أيضاً من عبث الممرضات ، كان ابن عمه يحضر إليه بعض المجلات وكتب المغامرات للتسلية ، فيجلس بالساعات يقرأ فى شرفة العنبر بينما الممرضات الصغيريات يتقافزن حوله

يعايشه ، فى الليل كانت إحداهن فى النوبتجية ، صغيرة وجميلة ، عند مرورها رأته جالساً ليقرأ بينما الجميع نيام، ابتسمت وقالت : بتقرا إيه ؟ مد يده بالكتاب فقرأت عنوان الغلاف "خزنى بعارى" للمؤلف عزيز أرماني . هزت رأسها : لا يا أخويا دى قصص قلة أدب ، أنا بحب قصص إحسان عبد القدوس ، عندك منها ؟ أخرج من درج الكومدينو مجموعة قصصية لإحسان بعنوان "شفته". قالت له تعالى اجلس معى نقراها سوا . دخل معها حجرة الممرضات ، لم يكن هناك غيرهما . جلس على ترولى الكشف بينما جلست تحت قدميه على كرسى وأخذ يقرأ لها ، كانت القصة تحكى علاقة حب بين ولد وبنت انتهت إلى الفراش ، أنصتت إليه مغمضة العينين ، وفى لحظة ذروة القصة ، وضعت يدها فوق فخذه تعابشه ، وأمسكت يده وأمرته أن يدسها بين فخذيها ويفعل مثلما تفعل ، وسمع صوت تأوهاتهما ، بينما ارتكنت بظهرها على الجدار مغمضة العينين ، وفكت أزرار البالطو الأبيض ثم القميص وأخذت تداعب صدرها ، وكان جسدها يتنفض ويتقلص هو ووجها ، وشهقت وكأنها فى النزاع الأخير ، ثم أخيراً تراخى جسدها فسحب يده وقد تبللت أصابعه بلزوجة منيها ، كانت توقفه من النوم ليقوم بمداعبتها بيده فتؤجج ناره ، ولا تسمح له بأكثر من ذلك . وامتنع ذات يوم فتدللت إليه وقالت إنها تخشى أن تفتض بكارتها ، لكنها سمحت له بأن يضعه بين فخذيها فقط ، وفى ذروة هياجها همست له بأن يخترقها ، لكنه تراجع لا يدري لماذا ، وأحس بالقوة لانتصاره على نفسه . بعد خروجه من المستشفى تحاشى أن تقع عينه فى عيني أمه ، وهى بدورها لم تحدّثه عن شىء اكتفت فقط بأن ربت على

ظهره ونظرت إليه مبتسمة : والله وكبرت يا جمال وبقيت تعرف تحب .
قالتها بفخر أم كبر ابنها فجأة وأصبح رجلاً . فى المساء ، اتصل بغادة ،
همست له فى السماعه : محمد هنا ، ثم انقطع الخط فجأة . حدثه قلبه
بكارثة ، ربما عرف بما يحدث ، هل باحت له فى لحظة ضعف ؟ هل رأهما
أحد معاً فأخبره ؟ لماذا قطعت الاتصال فجأة ؟ لا بد أن شيئاً قد حدث ، وما
الذى يفعله الآن ؟ هل يذهب إليه وكأنه لا يعرف شيئاً ؟ أم ينقطع فجأة ؟
فقد يشك فى أمره . فتح له الباب ونظر إليه بعينه الخضراوين ، وابتسم :
أهلاً بالاستاذ ، تفضل ، قاده إلى الداخل وأجلسه فى الأنتريه . حمداً لله
على السلامة يا فندم . قال ونظر إليه من تحت لتحت ؛ عله يقرأ شيئاً فى
وجهه ، لكنه كان هادئاً مبتسماً . غادة حكّت لى على كل اللى بتعمله .
وقع قلبه بين قدميه رعباً : ما الذى حدثته عنه ؟ هل قالت له على كل
شئ ؟ دى بتشكر فيك قوى . آه . تنهد من القلب لنفسه وأخذ يبحث
بعينه عنها ، ولا بد أنها سمعت صوته ، فقد جاءت تيمس بدلال ، سلمت
عليه وجلست على حرف الفتوة الذى يجلس عليه زوجها وانكأت بيدها
على كتفه : أنا شكيتك لمحمد ، تصور ، الأستاذ يفضل واقف على الباب
وما يدخلش . رد محمد : ما أنا عارفه ، أصله بيتكسف ، وأخبار
البلوفرات إيه ؟ قالت غادة : تصور يا محمد باعها كلها وادانى الفلوس .
قام محمد فانتهرت الفرصة ودست ورقة فى يده ، ثم تركته ودخلت هى
أيضاً ، عاد وفى يده بلوفرات أخرى : بما أن كل البلوفرات اتباعت أنا
هازود السعر خمسة جنيهه ، وعلى فكرة أنا جاى أربعاً وعشرين ساعة
وراجع تانى المشروع ، وعاوزك تحيىنى وتحيب معاك الفلوس ، استأذن

وانصرف سريعاً ، تنهد بارتياح ، فقد مر اللقاء بسلام وتبددت مخاوفه ،
تحسّس الورقة التي أعطتها له في جيبه ، وفور عودته للمنزل فتحتها وقرأ :

حبيبي .. جاء .حمد فجأة وعلى غير انتظار ، محمد سألتني عنك فقلت
أنك نجى كل يوم وأنت تقف على الباب وتأبى الدخول ، محمد سيعود
غداً إلى العمل ، فانتظر يوماً وتعالى لأضمك إلى صدري ، واعمل
حسابك تبات عندي ، قبلاتي الحارة .

لم تكن الرسالة تحمل توقيعها ، وعدّ هذا من علامات ذكائها ، فإنها
تخشى أن تستخدم ضدها فيما بعد ، من بين النساء اللواتي عرفهن ، كانت
غادة أكثرهن ذكاء وحيوية ، متفجرة الأنوثة وعلى استعداد لممارسة الحب
في أية لحظة ، ربما كان الحرمان الذي تعانیه له دخل في هذا ، سألها مرة .
لماذا لم تطلب الطلاق منه قالت إنها طلبت منه في لحظة يأس ، ودهشت
لرد فعله ، فقد انفجر باكياً ودفن رأسه بين ركبتيها ، قال لها تطلب أي
شيء وتفعل أي شيء ، ولكن لا تتركه فهو يحبها ولا يستطيع العيش
دونها . لئلا تنفصلها ، شعرت بالإشفاق عليه ، بل إنها ضمته إلى صدرها
وأخذت تبكي معه ، من وقتها ، يلبي كل رغباتها ويتركها تفعل ما يحلو
لها وهذا ما كان يطمئنها بعض الشيء حول ردود فعله إذا عرف علاقتهما .

في الصباح الباكر ، حمل حقيبة «هاندباچ» وركب إلى محطة القللي ،
استقل عربة «بيجو» ذاهبة إلى السويس ، وعند الكيلو ٨٠ أشار للسائق
بالتوقف ونزل واتجه إلى الصحراء ، لمح عدة خيام متناثرة في عمق الجبل
فأدرك أنها قيادة اللواء ، اتجه إليها وسأل عن كتيبته ، لمح جندي المراسلة
الخاص بالرائد فسلم عليه وأشار إلى خيمته : لكنه ذهب إلى الجبل الآن ،

فهناك مشروع ضرب نار يحضره قائد المنطقة المركزية . ثم أكمل : يمكن
تنتظره في الكانتين لحد ما يرجع . طلب شايًا وباكوبسكوت وجلس وأخذ
يتسكع بعينيه في أرجاء المكان حتى تجاوزت الساعة الثانية ظهرًا ، حينها
أحس بحركة غير عادية فعرف أنهم عائدون ، غادر الكانتين ووقف أمام
خيمته ، ولمحه آتيا في عربة جيب مفتوحة ، تقدم منه وسلم عليه فأخذه إلى
خيمته . هنا من أمسى ؟ من الصبح يا فندم . جيت الفلوس ؟ هز رأسه
وأخرج من جيبه العلوى لفة أوراق نقدية أعطاها له . لو يعلم أن زوجته
هى التى أعطته هذه النقود ! شوف ، المشروع ينتهى بعد بكرة ، أنت تنزل
دلوقت ومتنساش تعدى على المدام تشوفها عايضة إيه واتصل بى بعد بكرة
فى البيت يللا مع السلامة .

عند عودته لم يمر على منزله ، بل اتجه رأسًا إلى منزل الرائد ، ضغط
الجرس ففتحت له وعند الباب قبلته ، وتعجب لجرأتها : جيت بدرى على
غير العادة ، كنت فين ؟ تساءلت وجلست على ركبتيه وأخذت أصابعها
تداعب شعره بينما أنفاسها المعطرة والحارة تلفح رقبتة : كنت عند الرائد فى
المشروع . وأوصانى بك وأمرنى بالمرور عليك . ضحكته ودفنت رأسه فى
صدرها بمرح : يجد ، وأنت جيت تعمل بالوصية ، طب يللا قوم ؟؟ حتى
أشبع . أنا هاطلب منك طلب . أأمرنى يا روحى . عاوز أنام ولو ساعة
واحدة المشوار هدنى ، وعلى فكرة المشروع ينتهى بعد بكرة ومفيش قدامنا
غير الليلة . ولا يهملك سنتصرف ، سكة عادة كلها مسالك . قالت وقادته
إلى حجرتها فأنامته وقبلته : مش ها أزعجك ، نام براحتك لحد ما تشبع ،
وراك شقا لحد الصبح وكان بالفعل يشعر بالتعب فأغمض عينيه وراح فى

النوم ، كم من الوقت مضى ؟ لا يدري ، لكنه أفاق فشعر بها تلتصق به ويدها تعبت به من تحت الملاء وجردته من ملابسه . وأراد أن يقوم ففردت ذراعيه وصلبته بيديها وانطرحت فوقه وأخذت ترهز حتى غابت عن الوعي، وصرخت صرختها الأخيرة قبل أن ترمى على صدره ساكنة .

(9)

مرّ يومان قبل أن ينتهي المشروع ويعود الرائد محمد إلى منزله ، كان يعلم بوصوله فاتصل به مساء . قال له لا تجهّد نفسك بالمجيء الليلة ، أوصاه بتسليم نفسه إلى الكتيبة صباحاً ، فقد جاء أمر من المحكمة باستدعائه وضع السماعة وأشعل سيجارة ، غداً يبدأ الشقاء ، وأمامه اليوم فقط ، فقد يحتجزونه من الغد ، ولا يدري لماذا تذكر زوزو فجأة ، سوف يطلبها الآن ، ألم تقل له اطلبني في أية لحظة ، عرفت من صوته فقالت بلهفة : اركب تاكسى على حسابي وتعالى فوراً، العنوان معاك ما يتوهش، كان البيت يقع على ترعة المربوطية ، ولم يجد صعوبة في التعرف عليه ، ووجدها في انتظار ، على باب الشقة ، ضغطته في صدرها وقبلته ، كانت أكثر جمالاً من المرة التي رآها في معسكر الشرطة ، قادتته إلى حجرة بها مقاعد عربية ، جلس على الأرض وجلست أمامه : خرجت أمّتي ؟ سألته ولم تنتظر إجابته فأردفت : حمدًا لله على السلامة ، دى مفاجأة بمليون جنيه ، معقولة لسه فاكرني . كانت المرأة التي عرفها في الحبس قد تلاشت الآن ، أما التي أمامه فهي أخرى أكثر جمالاً مما كان يظن ، ترتدى ملابس غالية وصاحبة ذوق رفيع وتنبعث من جسدها رائحة بارفان غالي الثمن ،

ولديها خادمة صغيرة تحمل طفلها . قالت إنها منذ أن خرجت والزبائن ما عادوا كما كانوا ، يخشون المجرى إليها خوفاً من حدوث كبسة ، فالشقة أصبحت معروفة لدى شرطة الآداب ، كانت الفضيحة بجلاجل حين أخرجوا ستة رجال بساؤهم ملفوفون في الملاءات ، والدنيا كلها تفرجت على المنظر ، لكنها تعتمد الآن على الزبائن القدامى لأنها تقدم إليهم بضاعة مثل طابع البوستة مضمونة ومقفولة بختم ربها ، ترحمت على الصيغ وأيام الصيغ حين يجيء العرب ويجعلون الدنيا تزدهر ، أما الآن فإنها تفكر في بيع الشقة والانتقال إلى مكان جديد لا أحد يعرفها فيه فربما رجعت الأوضاع مثل الأول ، حدثه كصديق قديم عن حياتها منذ أن كانت صبية في الثانية عشرة ، وكيف كانت تذهب وراء سيدتها التي كانت تعمل لديها تحمل لها حقيبة بها سجاثر ومناشف ، وكان الزبائن يضاجعون سيدتها أمامها ، تذكر ذلك اليوم حين اتفقت سيدتها مع أحدهم وقبضت ثمنها وأمسكتها له ، ارتعابها من منظر الدم المراق على فخذيها والآلام المبرحة التي لازمتها طويلاً ، لكنها أعادت الكرة تحت ضغط الحاجة ، وسرعان ما اعتادت ذلك الأمر ، موت سيدتها بعد أن عرفت منها أصول الصنعة ، كانت دائماً حقيقية تعرف كيف تعمل بشياكة ودون تبذل ، تقول أهم شيء الواحدة تحافظ على البرستيج بتاعها وتكون عزيزة النفس بدون وضاعة ، وأهم من كل ذلك ، كانت لها صلات سياسية ، تقول : بدون صلات سياسية يصبح عملك خطراً ولا تساوى شيئاً ، فهي التي تحمى وتجعل للواحدة ظهراً تعتمد عليه . سألتها فجأة : وتعمل إيه دلوقتى ؟ هز كتفيه وقال إنه لا يفعل شيئاً ، وإنه فى انتظار محاكمة عسكرية ولا يدري ماذا يحدث فى الغد . نظرت إليه وسرحت للحظة وسألته : ما تفكر تشغل

معاًيا . ضحك ، ودهمه السؤال فارتبك : أعمل إيه ؟ معاًيا ، أنت جسمك
جسم مانيكان ، طول بعرض ، وسيم ، رشيق ، وتدوخ أيها واحدة ، فكر
أنت بس وأنا أخليك ناكل الشهد . اعتدلت واتخذت شكلاً جاداً وهي
تسعدت ، وجلس صامتاً مبهوراً بما يسمع ، حدثته فقالت : إن المهنة
تطورت بشكل سريع ومخيف مع تطور الحياة ، دخلها الكمبيوتر وشبكات
الإنترنت والموبايل وأفلام الفيديو وحتى شرائط الكاسيت ، حتى الأماكن
تغيرت ، فبعد أن كانت في شارع عماد الدين وكلوت بك والكيت كانت
ومحمد على وعوامات النيل ، أصبحت الآن في شارع الهرم وجامعة
الدول العربية ، النوعيات أيضاً تغيرت فدخلها فتيات أرسنقراطيات
وسيدات مجتمع ، علاوة على الرافضات والممثلات الشهيرات حتى أن
إحداهن وصل أجراها عن ليلة واحدة ثلاثين ألف جنيه ، لم يعد شارع
الهرم منطقة جذب للسياح كما كان من قبل ، بل القرى السياحية الجديدة
في شرم الشيخ والبحر الأحمر والساحل الشمالي ، أما العرب الكحيتي ،
فهم يذهبون الآن إلى جامعة الدول العربية ، وقد ازدهر الشارع فافتحت
مطاعم جديدة للوجبات السريعة مثل كنتاكي وصب واي ، وتيك أواي ،
وومي وغيرها وأضواء ملونة لا تنطفئ طوال الليل ، ومبى مثلاً ؛ تكونت
حواله حلقات من وجبات الجنس السريعة ، والعرب يذهبون إلى هناك ،
الرجل يلتقط ما يحلو له من فتيات ، وليست هناك مشكلة فسماسرة الشقق
المفروشة متواجدون هناك أيضاً ويؤجرون الشقة بالساعة ، كذلك النساء
يلتظن ما يروق لهن من الشباب ، لكل هذه الأسباب فهي تفكر بالانتقال
لجامعة الدول العربية ، فهي المستقبل المزدهر لهذه المهنة .

لم يكن مندهشاً لما تعرفه من معلومات عن مهنتها ، كان يعرف أكثر من

ذلك ، فقد قرأ مرة تقريراً عن سوق الدعارة أو تجارة الجنس ، ويعرف أنها أكثر انتشاراً الآن برغم تحريمها ، مما كانت عليه قبل الثورة ، ويعرف أيضاً أن أن الشواذ من الجنسين لهم أماكن تجمع معروفة ، وأن بعض الكبار يملكون شققاً يؤجرونها مفروشة ولا أحد يجرؤ على مهاجمة هذه الشقق ، فهي محمية ، وأنه في السبعينات تطورت الدعارة ، ووجدت لنفسها ثغرة في القانون ، فتدفقت فجأة وفود العرب على قرى بعينها وأحياء شعبية فقير ، للزواج العرفي أو بعقد ، من فتيات صغيرات لمدد تتراوح بين أسابيع أو شهر حسب الاتفاق نظير مبلغ يدفع للأهل ، وكان الاتفاق مريحاً لكل الأطراف ، فالأسرة الفقيرة التي لا تملك قوت يومها ، لكنها تملك فتيات مثل ورود صغيرة لم تفتح بعد ، وجدت نفسها تستطيع العيش قليلاً عن طريق بيع بناتها نظير حفنة دولارات أو ريبالات ، والعرب الباحثون عن المتعة الآمنة ، وجدوا أنها طريقة سهلة غير مكلفة ، فهم يستطيعون التهام جسد بكر جميل طوال فترة إقامتهم دون دفع مصروفات إضافية ، بدلاً من فتيات الليل الجشعات ، ثم إنهم مسلمون فلا بد وأن يكون كل شيء حسب الشريعة الإسلامية ، وبذلك يكون قد كسب الدنيا والدين !

كان عرضها صادقاً وحماسياً ، ونظر إلى ساعته وهب واقفناً : ياه ، الوقت سرقتا . إحنا لسه قعدنا ، أنا عازمك على السهرة عندي . قالت وابتسمت وبيلاش يا سيدى ، إيه رأيك ؟ اعتذر متعللاً بأنه يجب أن ينام مبكراً ليصحو فجرًا للذهاب للكتيبة . عند الباب صافحته وضغطت على كف يده : أنا تحت أمرك في أى وقت ، الزيارة دى ما تتحسبش وهستناك مرة ثانية ، وعلى فكرة ، فكر فى اللي قلته ، نخط أيدينا فى أيدي بعض .

الفصل الثالث

المحاكمة

كانت إجراءات بدء المحاكمة مملة وكثيرة ، ففى الثامنة صباحاً ، يذهب إلى المكتبة لاستكمال الأوراق ، ثم يصطحب مسنداً خاصاً عنده الرائد محمد مرافقاً له إلى المحكمة ، فيقف فى طابور طويل يكاد لا ينتهى لمجرد توقيع ورقة أو السؤال عن بعض الإجراءات ، واستمر ذلك مدة أسبوع ، وأخيراً حدد موعد المحاكمة يوم اثنين بعد أسبوعين . وأراد الرائد محمد إراحته مؤقتاً من بيع البلوفرات حتى يتفرغ للإجراءات فافتصرت مقابلته له فى المكتبة ولم يعد يذهب إليه فى المنزل ، كذلك لم يعد يرى عادة زوجة الرائد ، فى آخر مرة ذهب إلى المحكمة ، قابل شاباً فى أحد المكاتب ضابطاً برتبة نقيب ، تعرف عليه على الفور ، إنه أحمد سامى زميل الجامعة هو لم يعرفه ، لكنه عرفه إلى نفسه فاحتضنه وقبله ، كان معروفاً فى الجامعة باعتباره ثورجياً ، وكان الجميع يتوددون إليه ، وكان أحمد أحد الذين يتوددون إليه متمنياً أن يصبح من شلته ، فى ذلك اليوم ، أصر على توصيله بعربته ، وفى الطريق عرف حكايته ، كان أحمد يقترب بعلامحه من الفتيات ، التقاطيع الدقيقة والشعر الأسود الناعم والعيون السود الواسعة مع ميوعة فى حركاته وكلامه ، وكانوا يطلقون عليه اسم شادية لأنه يرسل شعره على جبينه فيشبه قصة شادية الشهيرة ، أما الآن ، وقد أصبح نقيباً ونائباً للأحكام فى المحكمة ، فقد حلق شعره وانسمت نبرات صوته بالشدة بعض الشيء . قال له : لماذا لم تتصل بى ، كنت حللت لك هذه المشكلة

ببساطة من الأول ، أما الآن ، فلا بد من المحاكمة ، على أن المسألة تتطلب تكتيكًا من نوع آخر .

أعطاه موعدًا في أحد مقاهي وسط البلد ، وفي المساء كان يجلس على المقهى في انتظاره ، ولم يتأخر ، سلم عليه وجلس بجانبه وأخذ يتحدث : شوف يا سيدى ، الحكم الذى يناله شخص فى حالتك وظروفك هو ثلاث سنوات مع الرصد من الخدمة . صمت وتطلع إليه قليلاً ثم أضاف . أما وقد قابلتني فسوف ، أخدمك خدمة العمر ، خدمة صديق لصديقه ، لكن المسألة تحتاج بعض النفقات . رسم علامة استفهام على وجهه فأكمل : سوف نحصل على سنة مع الإيقاف ، وهى معجزة ، لكنها تتحقق بإذن الله اعتمد على . كم تحتاج ؟ تساءل وتطلع إلى وجه صديقه . ثلاثة آلاف ، عهد مين ده . ومد يده وتناول كفه وهزها ، والعشرة دول مافيش جنبه واحد هاحطه فى جيبى ، هادفعها كلها لأصحاب نصيبها . اتفق معه على تسليمه نصفها قبل المحاكمة والنصف الآخر بعدها .

لم يكن تدبير ثلاثة آلاف جنيه بالأمر الهين ، خاصة وأنه لا يملك منها شيئاً ، لو عرض الموضوع على غادة فسوف تتصرف وتعطيه المبلغ ، فكر فى الاتصال بها ، ربما كان الحديث فى التليفون غير مجد ، سوف يذهب إليها ، ويحدثها وهى بين ذراعيه ، لن ترفض أبداً فى مثل هذه الحالة ، حين ذهب إليها ، كانت المفاجأة أنه لم يجد أحداً ، أخبره البواب أنهما سافرا ولا يعرف متى يعودان ، وقف حائراً لدقائق ثم استقل تاكسيًا إلى المربوطية . كان الوقت مساء حين وقف على باب زوزو . أخبرته الخادمة أنها تأخذ حمامًا ، جلس فى انتظارها وأخذ يدخن بعصبية ، ولا بد أن

الخدمة أخبرتها فقد جاءت من الحمام مباشرة كانت تضع فوطة على شعرها وقد ارتدت روبا على الجزء الأعلى من جسدها ، أما ساقيهما وفخذيها فكانا عاريين ، قبلته وجلست بجانبه وأشعلت سيجارة ، . خطوة عزيزة دا انت دائما بتاع مفاجآت . ودخل فى الموضوع مباشرة ، قال إنه يحتاج لثلاثة آلاف جنيه من أجل القضية ، وأخذت هى تهز رأسها تشجعه على الحديث حتى انتهى . المبلغ دا كبير قوى ما أملكش رבעه دلوقت ، ممكن أدبره بعد شهر . هز رأسه نفيا : المسألة مستعجلة ولازم يندفعوا خلال يوم أو يومين . صعب جدا . قالت وأطرقت إلى الأرض ساهمة لدقائق ثم رفعت وجهها إليه مبتسمة : ولا يهكم ، تدبر عشان خاطر عيونك . فآكر الموضوع اللى كلمتك عنه . موضوع إيه ؟ قال وهو يطفى سيجارته بعصبية . لحقت تنسى ، مش قلت لك نشتغل سوا ، إنت ابن حلال ، فيه زبونة من الخليج ، ومحتاجة لشاب بمواصفات خاصة يقيم معها لمدة شهر ، وكل المواصفات تنطبق عليك ، إيه رأيك ؟ ودى تدفع كل اللى تطلبه ، وأنا عن نفسى مش عاوزه حاجة المرة دى ، المهم تقضى مصلحتك وسيب تدبير المسألة على أختك وما تحملش هم ، يعنى توفر مجهودك كله لها . يللا بقى فرفش . لم يشعر بضآلة نفسه كما يحسها الآن ، ها هو ينزلق إلى طريق ليس فيه رجعة ، طريق لم يكن يتخيل مجرد التخيل أنه الطريق الوحيد أمامه الآن . ولدهشته ، سمع صوته يقول لها بمذلة : وهل يبقى الموضوع بيتنا سرا لا يعرفه أحد ؟ صرخت : يعنى موافق ، وارتمت عليه احتضنته وأخذت تقبله ، صدقنى مش هاتندم ، ومن ناحية الأسرار اعتبره فى بير مالوش قرار وكل شغلنا أسرار يا عيونى ، ثم غمزت بعينيها : لكن يا

روحي أدوكل الأول وأعابن البضاعة ، مش يمكن ما تنفعش . ودون تردد ، وكان الأمر لا يعنيه ، خلع ملابسه ، وفي لحظة كان يقف أمامها عارياً ، ورفع رأسه وأخذ يدور حول نفسه ، ووسط دهشتها سمعت صوته يقول : وأنا ضامن بضاعتي وعلى التجربة .

في مساء اليوم التالي مر عليها حسب الاتفاق بعد أن اعتنى بنفسه عناية خاصة ، فبدأ مثل نجوم السينما لامعاً ونظيفاً يفوح منه عطر غالى الثمن ، ولم تمالك زوزو نفسها ، صفرت بفمها إعجاباً وغمزت بطرف عينيها : سيدى يا سيدى على الجمال والشياكة ، يا أرض احرسى . سار أمامها ومشى خلفه وأمسكته من وسطه : بس تعرف ، انت خسارة فى البهدلة مع ولاد الـ ... لم تكمل وأخذته إلى الداخل ، كان يتوقع وجودها فأخذ يتلفت حين رأى المكان خالياً ، أشارت بأصبعها وهمست : بالداخل ، جت قبل منك بنص ساعة . وقف ، وبدأ عليه القلق بعد أن تركته زوزو لدقائق ، كان كل تفكيره ينحصر الآن فى شيء واحد تناه . ألا تكون دميمة حتى لا يتعذب . مرت الدقائق بطيئة قبل أن تظهر زوزو وراءها امرأة لا يظهر منها سوى عينيها ، كانت ترتدى عباءة سوداء من رأسها حتى قدميها ، قدمتها له باسم سارة ، ثم أشارت لها : ارفعى الكلام الفارغ ده ، الدار أمان . وخلعت العباءة ، ولوهلة حمله فيها غير مصدق ما يراه ، رأى أنثى حقيقية أمامه ، كانت أربعينية ، ولها ملامح ظبية وحشية ، ترتدى أحدث ما توصلت إليه خطوط الموضة ، بلوزة سوداء مطرزة ولامعة بحمالات دقيقة كشفت عرى صدرها وكتفيها وتحت إبطيها ، وجيبة بيضاء ميكروجيب أظهرت ساقين رائعتين ملفوفتين وطويلتين ، كان لون بشرتها خمرياً ،

وشعرها الأسود الدسم شديد النعومة ، تناثر على كتفها وظهرا ، وأحس بقلق خفى ، وبدأ أكثر عصبية حين جلست أمامه واضعة ساقاً فوق أخرى ، فاستطاع تمييز لون الكُّلْت الملموم على جنب مظهرها شعر عانتها شديد السواد ، وأخذت الأسئلة تطن في رأسه : امرأة بكل هذا الجمال تبحث عن رجل بأجر ؟ في الوقت الذى لو أشارت لرحفوا على ركبهم أمامها ؟

كانت ترمقه من تحت لتحت ، وشعر بنظراتها تخترقه فتمللمل في جلسته ، واشتعل وجهه احمراراً ، فضحك تعجباً لقدرته حتى الآن على الشعور بالحجل ، وأحست زوزو بتوتر الجو فهتفت : تشربوا إيه ؟ كرفوازيه لو عندك . وانت ؟ أى حاجة . خرجت زوزو وتركتيهما وحدهما ، تنحج ، وأحس أن عليه يقع عبء قطع هذا الصمت فقال : إزيك ، كيفك انت ؟ ردت وعدلت من وضع ساقها وابتسمت وهى تتابع نظراته المستقرة على فخذيها العاريين : إيش تعمل يا عزيزى ؟ هز كتفيه : حالياً .. لا أعمل شيئاً . وشو كنت تعمل من قبل ؟ لا شىء أيضاً . قال وبدأ يشعر بضيق . ولم تمهله ، بل دخلت في الموضوع مباشرة : ولكن لن تكون عاطلاً بعد اليوم ، شوف سيدى . قالت إنها المرة الأولى التى تزور مصر ، وأنها تشعر بغربة خاصة إذا كانت بمفردها . وأنها جاءت قبل زوجها ، وسوف تمكث شهراً وحدها قبل أن يلحق بها فلديه عمل في أوروبا ، وأن الفيلا التى يملكها زوجها في منطقة موحشة بمصر الجديدة ، وأنها تريد مرافقاً لها ، تريده منذ الصباح الباكر فهى لا تريد تضيق الوقت دون أن ترى كل شىء فى القاهرة ، أما النقود ، فلا يحمل لها همماً . دخلت زوزو بزجاجة الشراب وأكواب وضعتها أمامهم وأخذت تصب الشراب ،

قالت : أصلى وزعت الشغالة عشان تبقى على راحتنا . نظرت إليهما
وأكملت : شكلكم اتفقتم . وغمزت بعينها : أخرج أنا منها بقى . ضحكوا
على دعابتها ، وتناولت سارة كأسها شربته دفعة واحدة وقامت واقفة : أيام
سورى ، فأنا انتظر هاتنقاً من زوجى ولابد من الرحيل الآن . قامت معها
زوزو لتوصليلها ، عادت بعد دقائق تبتسم وتنتظر إليه بدلال : المرة هاتنهيل
عليك ، انت عملت لها إيه ؟ أحس بالحجل فأطرق إلى الأرض . شوف يا
خويا عامل مكسوف ، دانت باين عليك جن مصور . تعالى بقى نتكلم فى
الشغل ، أنا لى عشرة فى المية على أى زبونة أجيبها لك ، موافق ولا لا ؟
ولما لم يجب أكملت : طيب تعالى بقى أدريك على شوية حاجات تنفعك ،
وضحكت وهى تسحبه من يده إلى الداخل .

(2)

فى الثامنة صباحاً ، كان يطرق الباب الداخلى للفيلا ، وظل الجرس يرن
والباب يدق فترة طويلة قبل أن يفتح الباب ، وظهرت سارة على مدخله
كانت نائمة وشعرها يغطى وجهها وقد ارتدت شورتاً وبلوزة قصيرة
أظهرت بطنها ، تركته على الباب ودخلت فدخل وراءها وأغلق الباب ،
ووجد نفسه وحيداً فى الصالة لا يعرف ماذا يفعل ، وجاءه صوتها نائماً :
أنا هنا ، تعالى ، تتبع مصدر الصوت فوجد نفسه فى غرفة نومها ، كانت
نائمة على بطنها ورأسها مدفون بين وسادتين ، وقف يتأمل تكوين جسدها
البديع للحظات ، ولما لم تنتبه له جلس على حافة السرير ومرر أصابعه
على ظهرها وردفيها بحركة يعرف تأثيرها جيداً ، كانت زوجته تقول حين

يفعل ذلك إن لك أصابع ساحر تسرى في الجسد مثل كهرباء . ولما لم تبد مقاومة، تذكر أن عليه بدء العمل فصعد بجانبها.

قال لزوجته أمينة : وهو يضع في حقيبتيه بعض أشياءه أنه سوف يذهب مع الرائد في مأمورية لمدة أسبوع ، واهتزت مشاعره حين دعت له بالتوفيق والعودة بالسلامة . في طريقه إلى سارة ، اتصل بالرائد فعرف أنهما لم يعودا بعد ، كانت جالسة في فرندا الفيلا فأشارت له ، تقدم نحوها وجلس بجانبها ، كان الجو خائناً فارتدت قميصاً على اللحم و«سلب» فقط ، وأمامها على الترابيزة وضعت زجاجة ويسكي سكوتش ووعاءاً من الثلج وكأساً ، قامت أحضرت كأساً أخرى وصبت له ، وأدارت جهاز مسجل فسرت موسيقى ناعمة ، دخل هو أيضاً فخلع ملابسه واكتفى بفانلة بحمالات وشورت ، أشعل سيجارة وارتنف من كأسه ببطء وتلذذ قالت: تحب ترقص . وضع الكأس جانباً وبدأ يرقصان ، وضعت رأسها على كتفه فأحس أنفاسها الساخنة تلهب وجهه ، وفح جسدها برائحة ياسمين منعشة ومثيرة وأخذت أصابعها تعبت برقبته وظهره وتضغط على مؤخرته ، همست : أشعر بالدوار فقد شربت كثيراً ، تركته وارتمت على أحد الكراسي ورفعت ساقيهما على مسند الكرسي ، وأشارت له : تعالي هنا جنبي ، تعرف ، أنا عشت كثيراً في أوروبا يعيشون في جو من الحرية المخيفة ، بينما نحن مكبلون بأغلال كثيرة كالدين والأخلاق والعادات والتقاليد والأعراف وأشياء كثيرة لا توجد إلا في عالمنا العربي ، وهم يتقدمون ، بينما نحن نعود إلى الوراء فهل العيب فينا وفيما نعتقد ؟ قل لي . أخذت تنظر إليه بعينين نصف مغمضتين . وبدت له سكرانة ولذيذة ،

وارتشف من كأسه قبل أن يرد عليها : أنا لم أذهب إلى أوروبا مثلك ، ولكن يبدو لي أن الناس هناك حلت مشاكلها بنفسها ، وقد تبدو لك الحرية التي يتمتعون بها مخيفة على اعتبار أنها حرية مطلقة ، بينما هي عكس ذلك حرية مقننة ، فهؤلاء الناس صنعوا تقاليدهم بأيديهم ، أما نحن فقد ورثنا هذه التقاليد فظللنا أسرى الماضي ، وهذا هو الفارق بيننا وبينهم ، ليس للدين دخل في هذا الموضوع ، بل على العكس فهم بمفاهيم ديننا ، يعتبرون أكثر تديناً ، فالمساواة والعدل والحرية والحث على العمل والتقدم هي جوهر جميع الأديان ، هم يفعلون ذلك بينما نحن نكتفى بالطقوس .

قالت : هل تظن أن للحروب التي خضناها طوال التاريخ ضد الاستعمار وضد إسرائيل دخل في هذا التخلف ؟ ضحك بصوت عال ، وانتابته كريمة من الضحك فشرق ، ودمعت عيناه ، وانتبهت هي له ، صب لنفسه كأساً أخرى قذفها في فمه دفعة واحدة : أية حروب تقصدين ، بل قول لي الهزائم المتوالية التي خاضها العرب ، أقول لك على شيء قد تدهشين له ، فكثيراً ما فكرت أن العرب لم ينتهوا أبداً أنهم مهزومون على طول الخط ، فقد تحولت تلك الهزائم بقدرة قادر إلى انتصارات ورقية ، هُزمتنا في الواقع وانتصرنا على الورق .

بدت له العبارة الأخيرة جيدة فأخذ يردد ها . وبحركة تمثيلية وقف أمامها وانحنى واضعاً يده فوق صدره : أقدم إليك سيدتي أحد أسلافك المهزومين ، أقدم إليك أحمد عرابي ، مصطفى كامل ، سعد زغلول ، جمال عبد الناصر ، محمد أنور السادات ...

هل تريدن فرعونيات ، خذي عندك ، حور محب ، أحمس ، تحمس ،

رئيس الثاني ، خوف ، خفر ، منقرع ، ودلوكة أعظم ملكة في التاريخ .
وانهار فجأة فوق على ركبتيه وبدا سكراناً يحدث نفسه : هذا هو تاريخي
الذي أحمله فوق ظهري أينما وليت ، تاريخ أعظم الحضارات ، وأعظم
الهزائم أيضاً ، وبدا صوته خافتاً وهو يندن : خلى السلاح صاحي
صاحي .. لو نامت الدنيا صحيت مع صاحي ، يا حبنا الكبير .. والأول
والآخر ، طوف وشوف ، قوم بإيمان وضمير .. دوس على كل الصعب ..
على كل الصعب وسير ، يا صوت بلدنا يا صوت ولادنا ، صوت الوطن ،
وبلدنا على التربة بتغسل شعرها ، أنا إن قدر الإله مماتي ، انتصرونا يوم ما
هب الجيش وثار ، لو مت يا أمي ما تبكيش ، الأرض بتكلم عربي تقول
حطين ، لا تصالح ولو قلدوك الذهب ، الطشت قلالتي يا حلوة يا ليلي
الشيكولاته ساحت راحت ماطرحت ما راحت ، كوز المحبة انخرم ..
وسقطت قربك فالتقطني واضرب عدوك بي فانت الآن حروحوحر ... يا
حلاوة .

اعتدلت سارة وبدا أنها أفاقت على صوته الذي علا منشداً ، وتحول إلى
نشيج مكتوم ، وبكى ، بكى كما لم يبك من قبل ، بكى طفولته التعسة ،
وبكى يتمه وشبابه لضائع المهان ، وأخذ ينهني مثل طفل فقد أمه فجأة ،
وارتمت عليه سارة وضمت رأسه إلى صدرها ، قبلت وجهه وشربت
دموعه ، همست له : تعرف أنا أحس بنفس شعورك ودائماً ما يتملكني
إحساس بالضيق وخراب النفس . قال : سرقوا أحلامنا ولاد الكلب ،
باعوا كل شيء ولم يتركوا لنا أي شيء ، سلسال لا يتقطع من الخونة
والأفانين ، ولا فائدة ، فكل شيء في سبيله للانهيبار . أرادت أن تسري عنه

فقال: تعرف، قابلت مرة في باريس امرأة معها فتاتان تعرفت إليهن، عرفت أن المرأة تدعى «حسناء» من الجزائر، ورأيتها تؤجر فتاتيهن للإخوة العرب هناك، وحكت لي قصتها، تعرف من هي تلك المرأة؟ إنها زميلة «جميلة بوحريد» نفذت معها كل العمليات وسجنت وتعذبت معها. قالت إنها بعد قيام الثورة الجزائرية لم تجد ما يسد رمقها هي وبنتيها فتحولن ثلاثتهن إلى موسسات تتجولن في كل العواصم العربية من المحيط إلى الخليج، كانت تضحك وتقول لي: إن الوحدة العربية التي لا يغلبها غلاب تجسدت في هون، وتشير إلى ما بين فخذيها، فالعرب لم يلتقوا على شيء إلا هذا ضحكت سارة وداعبته فابتسم قال: هل تدرين ما هو أصعب شيء أن تهزم روحك، قد ينهزم المرء جسدياً، لكنه لا ينكسر، أما هزيمة الروح، فهي الانكسار التام، وما حدث لنا هو هزيمة الروح، وليست إسرائيل هي التي هزمتنا، إنما نحن هزمتنا أنفسنا بأيدينا، بأبطالنا وحكامنا وزعمائنا، الكل باع، وتركونا أسرى شعارات وغناوى عن الأرض والوطن. وقالت تعابته: قم بنا نوحّد كلمة العرب، أليست هذه مهمة قومية؟ أن نفعل في الفراش ما عجز الأناشوس عن فعله في ميادين القتال.

(3)

كان لديه موعد مع أحمد سامي، صديقه نائب الأحكام، فذهب إليه في منزله، لكنه لم يكن قد وصل بعد فجلس على مقهى قريباً من بيته بحيث يلمحه إذا جاء، مرت ساعتان قبل أن يلمحه آتياً من بعيد يرتدى

بذلة الجيش الكاكي حاملاً في يده حقيبة سامسونيات سوداء ، اتجهها معاً إلى المنزل ، وقبل أن يجلس ناوله مظلوماً به ألفان من الجنيهات ، أما الألف الثالثة ، فبعد إتمام العملية . أوقف تاكسياً وتوجه إلى حيث يقيم مع سارة ، واكتشف أن أسبوعاً قد مر وبقى أسبوع آخر قبل يوم المحاكمة ، وشعر بحتين مفاجئ إلى زوجته ، محرزية لا تترك له وقتاً ، اشترطت ألا يفارقها ، وفي المقابل ، تعطيه كل ما يطلب ، تقول إن له جسداً فرعونياً جميلاً . وأنها سوف تمتصه حتى القطرة الأخيرة ، هي مثل أرض شراقي لا ترتوى أبداً ، بل تطلب المزيد . قالت إنها سوف ترتب أموراً بحيث يكون معها في أى مكان تقيم فيه ، وقالت إن زوجها رجل أعمال معروف يسافر كثيراً ويجب أن تكون معه ، لكنه يهملها وينصرف إلى عمله ، لذا فهو يتركها على حريتها في البلاد التي يسافران إليها ، ومن السهل ترتيب الأمور ؛ من إرسال تذاكر السفر والحجز له بالقرب منها وهو بدوره رحب بالفكرة ، لكن هناك عقبة تحول دون ذلك ، وهي في سبيلها للحل ، حدثها عن هروبه وسامسة المستنرة ، وسعيه لإيجاد حل لها .

مرّ على أحمد سامي فأخذه إلى حلمية الزيتون حيث قابلا أحد الأشخاص يدعى : عوض . يعمل رئيساً للأمن بمستشفى الأمراض النفسية بالقوات المسلحة ، وكان أحمد قد اشترى له قطعة حشيش جيدة ، قال له : هذه القطعة تجعله يفعل أى شيء ، فهو مدمن ، وكان أحمد محقاً ، فقد سال لعبه حين رآها وأصبح مهتماً لسماع كل ما يقولانه ، حدثه أحمد عن المشكلة ، وأن عليه إدخاله المستشفى لمدة أيام فقط والحصول على تقرير به دخوله وخروجه وتوصيف للحالة بأنها اضطرابات نفسية ، ثم غمز له

فتركهما بمفردهما دقائق ، ولحق به أحمد وعلى وجهه ابتسامة : أبسط يا عم ، كل المسائل تمشى كما نحب ، سيقوم بإدخالك غداً ، لكنه يطمع في مبلغ كبير يقول إنه لمدير المستشفى . قال لا يهم ، الفلوس موجودة ، فقط ، لا تجعلني أفضى يوماً واحداً في السجن .

(4)

كانت الساعة قد تجاوزت الخامسة صباحاً بقليل حين تلملم وفتح عينيه ، وكان المنبه الموضوع على الكومودينو من ناحيته وبالتقرب من رأسه سكت منذ دقائق ، أزاح ذراع سارة عن صدره وتسحب بهدوء من جنبها خشية إيقاظها ، ووقف لحظة يتأمل جسدها البديع العارى والمتقوس في حالة استرخاء تامة ، ثم انسل خارجاً فأخذ دُشاً بارداً أنعشه وارتدى ملابسه وخرج ، كان الصباح ما زال مضطرباً ومندى ، أشار لعربة أجرة ، كانت المسافة قصيرة والشوارع هادئة ، بعد دقائق توقفت العربة أمام المستشفى ، ولمح عربة أحمد سامى بالتقرب من السور فاتجه إليها ، أغلق العربة واتجهها سوياً إلى الباب الرئيسى فدخل منه ، اتجهها إلى مكتب قائد الأمن بالتقرب من البوابة ، وجداه جالسا خلف مكتبه ، قام ورحب بهما فجلسا ، لم يكن بالحجرة أحد فأشار له : درست الحالة كويس ؟ أنت مصاب بحالة اكتئاب وفقدان ذاكرة . هز رأسه بالإيجاب . لقد درس الحالة بالفعل في أحد الكتب ، وعرف أعراضها جيداً ، سوف يظل صامتاً طوال الوقت ، وسوف يبدو عليه القلق من خلال حركات يديه ووجهه ، يدخن كثيراً ويسرح في لا شيء ، ينسى بعض التفاصيل حول تاريخ ميلاده ونشأته ، العزوف عن

الطعام ، فهناك من يرقبه طوال الوقت ، وفي النهاية يكتبون تقريراً بالحالة ، وإذا جاء التقرير فى غير صالحه ، هنا تبدأ مهمة المدير فيقوم باستبداله بآخر يكون به المطلوب بالضبط . أخذه من يده إلى حجرة المدير . قال : انتظرني لحظات بره . دق الباب ودخل وأغلقه خلفه ، غاب بعض الوقت فبدأ يشعر بالقلق ، عاد وأمره بالدخول ، كان مدير المستشفى يجلس خلف مكتب ضخم ، جسده الضخم يتناسب مع حجم المكتب ، وقف أمامه صامتاً فى وضع انتباه ، بينما وقف رئيس الأمن بجانب المدير . كان صوته هادئاً وعميقاً وهو ينظر إليه : أنت فعلاً مريض ، ولأبتمارض ؟ أنت عليك أى أحكام ؟ شعر باضطراب وتخييل للحظة أن فخاً نصب له ، وأن المدير لا يعرف شيئاً ، وسوف يكشفه ويسلمه للشرطة العسكرية الآن ، ولم ينتذه من تلك اللحظة إلا صوت صاحبه يرد على المدير : طبعاً مريض يا فندم كما قلت لسيادتك وشرحت حالته . نظر إليه ، ثم أخذ يدون فى ورقة أمامه ناولها لرجل الأمن الذى اتجه إليه وهتف : انصراف . حين غادر مكتب المدير تنهد بارتياح ونظر إلى رئيس الأمن فابتسم بطمئنه وأشار إلى الورقة : ورقة دخولك المستشفى وقعها المدير ، وكل شىء ماشى حسب اتفاقنا ، تبقى بعض الإجراءات وينتهى الموضوع ، أخذه من يده بوقع الورق فى عدة مكاتب حتى أنهى الإجراءات : مبروك ، أنت دلوقت محجوز من النهاردة ، وكلها أيام وتخرج بالتقرير . تبعه إلى المكتب حيث كان أحمد سامى جالساً فأخبراه بما حدث . سلم عليه وعلى رئيس الأمن الذى شد على يده قائلاً : مش هاسيبك ، اطمئن ، هامر عليك من وقت للثنانى ، جاءت إحدى الممرضات وقادته إلى أحد العنابر وأشارت إلى

سرير خال في آخر العنبر فاتحه إليه . كان العنبر كبيراً وواسعاً به ثمانية عشر سريراً متقابلين ، بعض المرضى كانوا جلوساً فأخذوا يتأملونه وهو يمر بينهم . استلقى على سريره واغمض عينيه ، وشعر براحة وهدوء ، هو الآن مراقب منذ هذه اللحظة ، وأى حركة يقوم بها تسجل في ملفه ، لذا فقد وضع لنفسه برنامجاً سوف يقوم بتنفيذه تدريجياً ، لا أحد يعلم بوجوده هنا الآن ، زوجته تعلم أنه في مهمة مع الرائد منذ أسبوع ، الرائد وزوجته عادة لا يعلمان عنه شيئاً ، وسارة لم يقل لها على تلك الخطوة ، لا بد أنها سوف تتساءل عن سر تغيبه ، قد تسأل زوزو ، لكن زوزو أيضاً لا تعرف شيئاً . قال لنفسه : هذا وضع مثالي ، لأول مرة يجد نفسه حراً وقد تخلص من كل من ارتبط بهم في خطوة واحدة ، وبدا ذهنه صافياً ، ولا يدري لماذا يتذكر الآن فجأة يوم وفاة عبد الناصر ، خروجه هو وشباب الحارة يحملون الأعلام السوداء ، يطوفون حوارى بولاق الدكرور ومن خلفهم النساء يرتدين الملابس السوداء والجميع يهتفون : الوداع يا جمال يا حبيب الملايين ، كانت أمه بينهن ، سيرهم على أقدامهم حتى كوبرى القبة ليروا جثمانه ويودعونه لمناخ الأخير ، دائماً ما تقترب لحظة موت جمال بلحظة موت أمه ، كلاهما كان حجر أساس في حياته ، وموتهما شعر بهذا الأساس ينهد وأن حياته هي الأخرى في طريقها إلى الانهيار ، هو الآن على مرمى البصر من الجامع الذى بناه جمال ليدفن فيه ، كان موت جمال مقدمة لموت الوطن ، وموت الأفكار الكبرى العظيمة . لحظة أخرى تستدعيها الذاكرة واضحة ، ظهور السادات على الشاشة يوم الخامس عشر من مايو عام واحد وسبعين ، إعلانه على الملأ بشكل تمثيلي عن ثورة

التصحيح ، تطهير مصر من مراكز القوى ، إحراقه لأشرطة التسجيل النوى سجلت عليها مؤامرتهم لقلب نظام الحكم ، وتساءل لحظتها أى حكم هذا الذى يقلبونه ، أليسو هم الحكام ، وأى رجال هؤلاء الذين لمهم السادات فى لحظة ، سوف يراهم فيما بعد عند تأسيس الحزب الناصرى ، وقد انحنت ظهور من تبقى منهم وتهذلت جلودهم ، وسوف يقول لنفسه إنهم رجال هاشون ضعفاء ، استطاع لمهم فى قفص واحد مثل فراخ شاردة . فى أحد الأيام ، كان يمر على أحد المحلات فى باب اللوق تخصص فى بيع الأشياء القديمة ، ورأى أمامه عدة تليفون معروضة للبيع ، وتسمر مكانه غير مصدق ، كان التليفون الخاص بحجرة نوم عبد الناصر ، لونه الأسود أبنوسى . طويل وأنيق ودقيق الصنع كان الروس قد أهدوه لجمال ، قرأ اسم عبد الناصر محفورا عليه ، ثم أسماء مكتبه وأعضاء مجلس قيادة الثورة . سأل الرجل عن ثمنه ، كان ثمنه مائة جنيه وكانت جيوبه خاوية ولم يعرف كيف يتصرف ، جرى إلى أحد أصدقائه ممن يبيعون ويعيشون باسم عبد الناصر . أراد اقتراض المبلغ منه فاعتذر ، حدثه عن التليفون فقال له انتظر دقيقة ، وأدار قرص تليفون أمامه ، تحدث باحترام بالغ إلى أحد الأشخاص ، فجأة أعطاه السماعة وهمس له : سامى شرف على التليفون ، تحدث معه وصفه له ، أما الآخر ، فقد حدثه بألفة من يعرفه منذ زمن ، قال له : صفه لى . فأخذ يصفه له بدقة ، لونه الأسماء الموجودة على العدة بالترتيب . عقب بعد حديثه : ذلك هو تليفون حجرة نومه ، اقترح عليك الحديث مع هدى عبد الناصر . أعطاه رقم تليفونها ، اتصل صديقه بها وتحدث معها ، قالت إنهم باعوا كل ما يخص عبد الناصر «لظ» فى مزاد .

أعطاه عنوان المحل . ضحك وتساءل: ألا يوجد مع أحدهم مائة جنيه لشراء عبد الناصر . لحظتها فقط عرف لماذا كانوا بهذه الهشاشة ، لقد باعوه حياً وميتاً . فى طريق عودته مرّ على المحل، ورأى سيدة عجوز تساوم البائع على العدة ، واشترت عدتين بمائة جنيهه ، واحدة تخص عبد الناصر ، والأخرى رسم عليها التاج الملكى للملك فاروق لم يكن قد رآها .

جاء موعد الغداء فأحضروا إليه صينية بها أرز وخضار ولحم وبرتقالة ، ثم أعطته الممرضة بعض الأقراص ، وكان عليه إظهار بعض التقلصات أمامها ، وباغتته فجأة بسؤالها عن اسمه فلم يرد ، وتمدد على السرير ، ثم قام وأخذ فى السير جيئةً وذهاباً ، وأحس أنها ترقبه فاستمر فى السير حتى ذهبت فاستلقى مرة أخرى على سريره دون أن يمس طعامه . واستدعى تصاويره مرة أخرى .

كان السادات قد أعلن عن رغبته فى زيارة القدس ، والصلح مع إسرائيل ، حدثت بعدها مناقشات بينه وبين العقيد القذافى الذى وصمه بالخيانة ، وأصدر السادات قراره بمهاجمة ليبيا وتأديبها عسكرياً ، كان هو وقتها يخدم فى الجيش خدمته الإلزامية ، وتحركت كتيبته للوصول إلى الحدود المصرية الليبية ، ووصلوا إلى مرسى مطروح ، وصدر لهم الأمر بالاستراحة بعض الوقت ثم مواصلة الزحف حتى السلوم ، كانت المهمة ثقيلة على الجنود والضباط على السواء ، لقد خاضوا حروباً كثيرة ضد أعدائهم الإسرائيليين ، لكنها المرة الأولى التى يحاربون عرباً مثلهم . وظل طوال الطريق يفكر : ماذا يحدث لو هرب ؟ العقوبة محاكمة ميدانية عقوبتها الموت رمياً بالرصاص ، أليس أفضل له من أن يقتل أو يقتل بلا

سبب ؟ وهل لو قتل يصبح شهيداً ؟ إنه لا يحارب عدوًّا له ، ولا يدافع عن أرضه ، وليست هناك أية قضية يدافع عنها ، المسألة كلها تصفية حسابات بين زعيمين على زعامة المنطقة ، مسألة شخصية ، يعنى فى مرسى مطروح قال لنفسه : تلك هى الخيانة بعينها ، فليس هناك أبشع من زعيم يخون شعبه من أجل مصالح شخصية . وحين استأنفت القافلة رحلتها ، كان هو قد اختفى ، ركب عربة عاد بها إلى القاهرة وهو يردد : الزعماء يموتون ، أما الشعوب فهى التى تعيش .

حين أتت الممرضة بطعام العشاء ، نظرت إلى صينية الغذاء فرأتها لم تمس ، وتعهد هو أن يشعل سيجارة أمامها ويأخذ نفساً طويلاً ثم يرميها إلى الأرض ويدوس عليها بقدمه بشدة ، بل أخذ يضرب بقدمه فى السيجارة بعنف حتى أذابها فى البلاط ، ثم أشعل أخرى ، خرجت الممرضة دون أن تتحدث معه . كل شئ يسير كما خطط له تماماً ، وعليه ألا يسترخى ، فهم يرقبونه ، ولا بد أن يفتعل حادثة صغيرة تبرهن على خطورة مرضه ، نظر إلى المريض النائم فى مواجهته وخطر له خاطر ، جمع فى فمه كمية كبيرة من البصاق واتجه ناحيته وقذفها فى وجهه . هبَّ الآخر من فوق السرير وصفعه صفعة قوية ، ولم يعد فى حاجة إلى تمثيل ، فقد ألمته بشدة فبكى ، واتجه إلى سريره وأخذ يضرب رأسه فى الوسادة بانفعال وغضب ، ولم يطل انتظاره ، فقد جاء ثلاثة رجال ثبتوه فى السرير وأعطوه حقنة مخدرة فنام على الفور .

فى الصباح ، شعر بهدوء لم يشعر به من قبل ، فقد نام نومًا هادئًا طوال الليل ، وتذكر ما حدث بالأمس فكاد يضحك ، لكنه تماسك حتى لا يشعر

به أحد ، له الآن يومان فى المستشفى ، وبقى له يومان آخران ، وهو يمشى على برنامجيه بدقة ، وسوف يستدعى تصاويره إلى أن تأتى الممرضة .

(5)

لم تؤرقه مشكلة فى حياته مثلما أرقته مشكلة أخوه الأصغر ، فقد سافر إلى العراق فى منتصف الثمانينيات ليشق طريقه بعد أن أغلقت فى وجهه سبل الحصول على عمل ، مكث فى العراق ثلاثة شهور فقط قضاهام عاملاً فى مصنع للملابس الجاهزة ، عاد بعدها وقد تبدل إلى آخر كارهاً للحياة ، كان يقضى الساعات وحيداً شاردًا لا يكلم أحدًا ، وإذا خرج يختفى أيضًا بالساعات ، أين يذهب ؟ ما الذى حدث له هناك ؟ أظال لحيته فجأة ، وأصبح ينظر لكل شئ بعين الحلال والحرام ، وكان عنفه يزداد فى معاملته مع إخوته ، صب هجومه عليه ، شرب السجائر حرام ، الفرجة على التلفزيون حرام ، لعب الطاولة حرام ، قراءة الكتب سوى القرآن والسنة حرام . كلما تناقشا اتهمه بالكفر والضلال .

كان يحس أزمة أخيه النفسية لما حدث فى العراق . لكن ما الذى حدث له هناك ؟ لقد ظل سرًا لم يبيح به لأحد . وعرف أنه انضم لإحدى الجماعات ، وأنه يذهب لأحد المشايخ كل يوم ، كان يردد مثل بغاء ما يسمعه عن الشيخ . قال له فى إحدى المناقشات أنا لا أعترض على ما تفعله ، فقط عليك قبول رأى الآخر دون تكفير ، أنا أؤمن مثلك ، كان دائمًا يستشهد بأحد أبيات المتنبى الشهيرة : أغاية الدين أن تحفوا شواربكم ،

يا أمة ضحككت من جهلها الأمم . فيرد عليه قائلًا : حتى المنتبى الذى تستشهد به كان كافرًا وادعى النبوة .

لقد تفاقمتم الأزمة بينه وبين أخيه إلى حد المقاطعة . فى بداية السبعينات ، أطلق السادات الجماعات الدينية من المعتقلات ، وأعطاهم الضوء الأخضر لمزاولة نشاطها مرة أخرى ؛ فعل ذلك لضرب القوى الوطنية وجماعات اليسار ، وانطلقوا يعيدون تنظيم صفوفهم ويصححوا مسارهم انطلاقًا من مقولة زعيمهم الروحى سيد قطب أن التغيير لابد أن يأتى من القاعدة إلى القمة ، ولابد من ارتباطهم بالناس عن طريق تقديم خدمات ، فبدأوا فى إنشاء منشآت خدمية بديلة عن الحكومية ، مسجد فى كل شارع وحارة عبارة عن مجمع خدمى به مدرسة وحضانة ومستوصف ، مصارف إسلامية رفعت شعارات ضد البنوك الربوية وتحمل أسماء إسلامية، فى المواسم والأعياد ، كان يرى البيت يتحول إلى خلية نحل ومخازن للغلال واللحوم، كانوا يحملون كشوفًا دوت فيها أسماء عائلات فقيرة تعيش تحت حد الفقر ، وكانت الحقائق البلاستيكية تحمل إليهم يوميًا مكدسة بالخضار واللحم والمواد التموينية ، كان يرى الناس يأتون إلى أخيه، يقفون طوابير من أجل الحصول على حقيبة تموينية أو مساعدات مالية . وفى ظل غياب الحكومة والأحزاب السياسية ، كان هذا هو البديل الناجح أمام الناس ، ربما كان يعجب بهم فى قرارة نفسه ، بل إن بعض أصدقاء أخيه أصبحوا أصدقاء له، وكثيرًا ما كانوا يتناقشون فى السياسة والدين ، بل إن بعضهم سألته ذات يوم قائلًا : نحن نعرف أنك ناصرى ، وكثيرًا ما نتعجب حين نراك تذهب إلى المسجد للصلاة بيننا !

يذكر تلك الليلة ، كان مؤرقاً ولا يدرى سبباً لذلك ، وكان أخوه أيضاً مؤرقاً ، فجاءه ليجلس معه ، ورآه ساهماً ، كانت الساعة قد تجاوزت الواحدة صباحاً ، قال له : عندى يقين بأنهم سوف يداهمون البيت اليوم . ولما استفسر منه عرف أنهم قبضوا على بعض أصدقائه وقد أخبروهم عنه . أراد المبيت عنده ، لكنه عدل رأيه قائلاً إنه سوف ينام بين أولاده فى شقته وتركه ومضى . كانت المرة الأولى التى يراه مهزوماً وخائفاً ، أحس بالخوف عليه كما لم يحس من قبل ، فقد سمع عن حفلات التعذيب ، مداممة بيوتهم ، وتصفيتهم جسدياً ، أسر بأكملها تمت تصفيتهم ، وبيوت تم إحراقها ، لقد قرأ مرة فى إحدى جرائد المعارضة أن الجماعات المتطرفة تقابلها حكومة أكثر تطرفاً ، يعلم أنهم يحتفظون بملفات لكل من له نشاط سياسى أو دينى ، ولابد أنهم سيفرقون بينه وبين أخيه ، فهم يعرفونه جيداً ، أثناء هروبه من التجنيد ، جاءه ضابطان من مباحث أمن الدولة وقالاه أنهما يستطيعان مساعدته وتسوية الأمر إذا دلّهما على أسماء بعض أصدقائه . استمرت جلسته معهما أربع ساعات كاملة دون طائل ، قال إنه لا يعرف أية أسماء وليست له صلة بأحد ، ووقف أبوه غاضباً وقال لهما يا بنى إنت وهو إحنا ناس مانناش دعوة بحد . منذ لحظتها ، عرف أنهم يرصدون حركته ، وأن له ملفاً لديهم .

كانت الساعة قد تجاوزت الثانية بقليل ، حين سمع صوت عربة تقف أمام الباب بغتة ، جرى إلى الشباك المفتوح ، ومن وراء الستار رأى عربة ميكروباص تسد باب البيت ، وخلفها عربة أخرى ، ورأى الجنود والضباط ينزلون من العربة مدججون بالرشاشات ، وفى لحظة واحدة أدرك الموقف ،

ارتبك للحظات ، ماذا يفعل ؟ هل يعلق بابه على نفسه ويتركهم ينفردون به ؟ هل جاءوا وفى نيتهم تصفيته جسدياً ؟ وإذا كان الأمر كذلك هل يخطئون ويصفونه هو ؟ أم يتم قتلهمما هما الاثنين ؟ أحس لحظتها بحب جارف نحو أخيه ، وتمنى ألا يحدث شيء مما تخيله الآن ، ربما لو أراهم نفسه يعطلهم لحظات تعطيه فرصة للهروب . سمع خطفاً على باب أخيه ، وفتح هو باب شقيقته فى الدور الأخير ووقف على السلم وقال : من ؟ ورأى الجنود يحاصرون شقة أخيه بالدور الثانى ، وبدأ ينزل السلالم ببطء ، وانتبهوا له ، وأخذت الرشاشات تتجه نحوه ، وانطلقت فى وجهه كشافات ضوء قوية ومبهرة فلم يعد ير شيئاً ، ورفع ذراعيه فوق رأسه ، ووصل إليهم فأحاطوا به ، وظنوه هو ، ولكنه أنكر فصدروه ناحية الباب وأمروه بالطرق ، كانت رشاشاتهم تلاحق ظهره ، وبدأت أفكاره تتسارع مع دقائق قلبه ، سوف يسلمه لهم بهدوء ؛ خوفاً من غدرهم به ، هو يثق أن أخاه لن يكون عنيفاً ، إنما العنف يبدر منهم عند أى حركة حتى وإن كانت غير مقصودة ، فى تلك اللحظات المتوترة نادى عليه ، أراد أن يسمعه صوته حتى يطمئنه ، دقائق مرّت كسنوات قبل أن ترد زوجته ، أمرها بفتح الباب ، تلكأت لحظات قبل فتحه ، اندفعوا داخل الشقة وانتشروا فى كل الحجرات ، سألوها عنه فأنكرت وجوده ، أخذوا يفتشون كل شيء ، اتكأ هو على حائط وتنهد ، سألوها بشكل مباغت عن بطاقته ، وكانت هى سريعة البديهة فى هذه اللحظة فأجابت أنها معه فى جيبه ورآها تدسها فى جيب جلبابها خلسة . بعد قليل سأله الضابط عن اسمه وهو يفتش فى كتب أخيه ، وبدأ الحوار هادئاً ومهذباً ، وتبادلا السجائر . وإمعاناً فى

الحبكة ، فقد نزلت زوجته بعد أن أغلقت الباب وراءها وسألته عن المفتاح لأن الباب أغلق وراءها بفعل الهواء ، وصعدت مرة أخرى وأخذت تخبط على الباب حتى يفتح الأولاد النائمون بالداخل ، وصدقوا التمثيلية ، وانتهوا سريعاً ومضوا بعد أن أخذوا بعض الكتب على وعد بتسليمه في الصباح . سأل زوجته : راح فين ؟ أشارت إلى المنور . فتح الشباك ونظر فلم يجد شيئاً . وكان هو حين أحس بهم نظ من شباك حجرة النوم إلى المنور ، ثم صعد على المواسير إلى شقته بالدور الأخير

في الصباح خرجت الصحف بمانشيتات عريضة عن تنظيم إرهابي جديد ، وإحياء محاولة لقلب نظام الحكم ، كان اسم أخيه يتصدر القائمة . قام بعد ذلك بتفريسه في شقة أمنة حتى سقطت القضية وأُفرج عن كل المعتقلين .

(٦)

كان نائماً حين حدث ما لم يكن في الحسبان ، فقد فتح عينيه فجأة على المريض الذي افتعل معه مشاجرة ، يقف أمامه جنب السرير ، ولم يمهله ، فقد أطبق بكلتها يديه على عنقه ، ضربه بقدمه في بطنه وصرخ ، وحين أتوا ، كان الآخر يرقد في سريره ، أشار ناحيته : كاد يخنقني ، دا عامل نفسه نايم . لكنهم لم يصدقوه ، وحسبوه يهلوس . واغتنمها فرصة فلم يصحح ما ظنوه ، وعدا نقطة في صالحه ، لكنه لم ينم طوال الليل خوفاً من إعادة المحاولة .

عند منتصف النهار ، انتبه على صوت رئيس الأمن ، جاء ليراه كما وعده قال : تشجع ، هانت ، كلها يوم أو يومين وينتهي التقرير ، حكى له

عما حدث بالأمس ، وأنه كاد يموت خنقاً بين يدي الرجل . هن رأسه : نعم
قريت اللي حصل فى التقرير ، وهو على كل حال فى صاخنك . قال له إنه
بدأ يشعر بالملل ، ثم إنه يخاف أن يعاود الرجل المحاولة . ودعه على وعد
بالمجيء إليه غداً . له حتى الآن أربعة أيام ، وبقي على موعد المحاكمة ثلاثة
أيام . ولا أحد يعلم بوجوده هنا سوى صديقه أحمد سامى وهذا الرجل
رئيس الأمن ، وكان من المفروض أن يخرج غداً ، فما الذى يحدث؟

أصبح على حذر من كل من حوله ، وزادت تقلصات وجهه وأصبحت
تتم دون إرادته بعد أن كان يفتعلها ، وأخذ القلق يستبد به وأخذ يهرب
كثيراً إلى أحلامه ، استدعت ذاكرته كل من عرفهن من نساء ، نادين ،
غادة ، زوزو ، أمينة ، سارة ، عفاف ، أوقفهن صفّاً واحداً ومارس معهن
الجنس دفعة واحدة ، وأخذ عضوه ينتفخ ، فضغط عليه بشدة حتى انفجر
سائله ، أخيراً هداً فراح فى النوم مرة أخرى .

مرّ يومان دون أن يسأل عنه أحد ، حتى رجل الأمن لم يحضر ، كان قد
للم أشياء استعداداً للخروج ، وأحس بقلق مبهم ، وأن شيئاً غير عادى
يحدث . قال لنفسه : لابد أنهم يكتبون التقرير الآن ، وأنهم سيرسلون فى
استدعائه فى أية لحظة ، وبدأ أن الوقت لا يمر ، وأن الزمن قد توقف ، اتخذ
قراراً بمقابلة المدير ، فلعلهم نسوه . استدعى إحدى الممرضات وطلب منها
مقابلة المدير فى أمر عاجل وهام . فأهملته بعض الوقت ، ومرت ساعة
فطلبها مرة أخرى وأخذ يلح فوافقت ، فى طريقه إلى حجرة المدير ، مر
على حجرة رئيس الأمن فلم يجده ، سأل عنه فعلم أنه قام بأجازة طويلة ،
كان المدير جالساً خلف مكتبه كما رآه أول مرة ، تقدم منه ووقف أمامه ،

ورآه ينظر إليه بدهشة من يتذكر أين رأى هذا الوجه من قبل . قال : سيادتك نسينى ولا إيه ؟ هز المدير رأسه : لا يا ابنى فاكرك طبعاً ، فيه حاجة ؟ كان ميعاد خروجى من يومين وما خرجتش لغاية دلوقت . أى خروج يا بنى ؟ سأل المدير . دب الخوف فى قلبه فجأة ، وأخذت تقلصات وجهه تعمل عملها . سيادتك افكرنى ، رئيس الأمن جابنى ليك وانفقنا على التقرير عشان المحكمة . أخذ يحملق فيه وتساءل : أى تقرير ؟ ومين اللى جابك هنا ؟ شرح له الأمر مرة أخرى . هز المدير رأسه كمن تذكر فجأة : آه .. التقرير ، اطمئن يا بنى ، شفاؤك قرب ما تخافش . انفعل وأخذ صوته يعلو : ولكن أنا مش مجنون وماجيش المستشفى إلا عشان التقرير . مفهوم ، مفهوم . كلها يومين وتخرج بالسلامة . أشار للممرضة فسجته من يده ، ولمح ملفه على المكتب والمدير يدون به بعض الملاحظات ثم أعطاه للممرضة التى أخذته من يده وخرجت به . كان مغتاضاً فأخذ يتحدث إلى نفسه بصوت عال فى طريقه إلى العنبر : الراجل مش فاكركنى ، وبتاع الأمن فى أجازة ، وأحمد سامى اختفى ، ومحدث يعرف إننى محجوز هنا ، والمدير عاملنى كمجنون . شعر بالاختناق ، وبأنه محاصر ، لا بد أن هناك خطأ ما ، أو هى مؤامرة ضده ، من الذى دبرها ؟ ولماذا ؟

حين دخل العنبر ، جلس على سريره هادئاً ، وسرح ببصره إلى الخارج ، واستدعى حياته السابقة كلها ، وأخيراً تنهد ، كان يفكر الآن فى وضع خطة للهروب من هذا المستشفى اللعين .

خيرى عبد الجواد

بولاق الدكرور

الفهرس

| | |
|----|--------------------------------|
| ٥ | الفصل الأول : فى ظهيرة يوم حار |
| ١٣ | الفصل الثانى : الحياة مرة أخرى |
| ٧١ | الفصل الثالث : المحاكمة |

صدر للمؤلف

- حكايات الديب رماح قصص - طبعة أولى الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٧
- طبعة ثانية مركز الحضارة العربية ١٩٩٥
- حرب أطاليا قصص - طبعة أولى الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٨
- طبعة ثانية مركز الحضارة العربية ١٩٩٨
- كتاب التوهمات رواية - طبعة أولى الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٢
- العاشق والمعشوق رواية - طبعة أولى دار شرقية ١٩٩٢
- طبعة ثانية الهيئة المصرية العامة للكتاب (مكتبة الأسرة) ١٩٩٦
- طبعة ثالثة مركز الحضارة العربية ١٩٩٨
- ترجمت إلى الفرنسية عن دار النشر جاليمار ١٩٩٨
- قررت على طلبة كلية دراسات عربية
- فرع الفيسوم - الفصل الدراسي ١٩٩٧/٩٦
- حرب بلاد نمم - قصص - مركز الحضارة العربية ١٩٩٧
- مسالك الأحبة - رواية - مركز الحضارة العربية ١٩٩٨
- يومية همروب - رواية - مركز الحضارة العربية ١٩٩٩

تحت الطبع :

- الجسني - رواية - الهيئة العامة لقصور الثقافة

من قائمة الإصدارات الأدبية

| | | | |
|--------------------------------|--------------------|------------------------|-------------------------|
| رواية .. قصة | إبراهيم عبد المجيد | الشاعر والمفكر | عزت الخريزى |
| ليلة العشق والدم | أحمد عمر شاهين | فى انتظار ما لا يتوقع | عصام الزهيرى |
| حمدان طليقاً | إدوار الخراط | إينارو | د. على فهمى خثيم |
| نماذج الوثائق والخون | إدوار الخراط | خولات الخشيش الذهبى | عفاف السيد |
| رقصة الأحلام الملحية | إدوار الخراط | سردايب | د . غريال وهبه |
| مخلوقات الأشواق البطائرة | إدوار الخراط | الرجاح المكسور | د . غريال وهبه |
| لا أحد يحبك | أمانى فهمى | بنابيع الحزن والمسرة | فتحي سلامة |
| دنا فتدلى (من دفاتر التدوين ١) | جمال الغيطانى | يوميات عابر سبيل | فصل سليم التلاوى |
| مطربة الغروب | جمال الغيطانى | وتر مستدود | قاسم مسعد عليوة |
| دموع إيزيس | حسنى لبيب | غرات أنشودة | قاسم مسعد عليوة |
| أحزان رجل لا يعرف البكاء | خالد غازى | حب وظلال | كوثر عبد الدائم |
| الحب والتفانى | خالد عمر بن قفه | ترانزيت | ليلى الشربيني |
| أيام الفرغ فى الجزائر | خالد عمر بن قفه | مشوار | ليلى الشربيني |
| يومية هروب | خيرى عبد الجواد | الرجل | ليلى الشربيني |
| مسالك الأحبة | خيرى عبد الجواد | رجال عرفتهم | ليلى الشربيني |
| العاشق والعشوق | خيرى عبد الجواد | الخلم | ليلى الشربيني |
| حرب ايطاليا | خيرى عبد الجواد | النعيم | ليلى الشربيني |
| حرب بلاد نمم | خيرى عبد الجواد | الجزيرة 2000 | محمد الشرفاوى |
| حكايات الدير رماح | خيرى عبد الجواد | كوميديا الإنسجام | محمد بركة |
| الطريق والعاصفة | رافقت سليم | أشياء لا تموت | محمد صفوت |
| فى لهيب الشمس | رافقت سليم | إلحاح | محمد عبد السلام المعمرى |
| أركبوا دراجاتكم | رجب سعد السيد | بعد صلاة الجمعة | محمد عبد السلام المعمرى |
| أنا كنده | كروجيا | الخروج إلى النبع | محمد قطب |
| سورة عزية الجسر | سعد الدين حسن | رشقات من قهوتى الساخنة | محمد محي الدين |
| شجرة الخلد | سعد القرش | الحبيب الجنون | د. محمود دهموش |
| شهوة | سعيد بكر | قندق بدون خوم | د. محمود دهموش |
| أيام هند | سيد الوكيل | الهروب مع الوطن | ممدوح القديري |
| المنوع من السفر | شوقي عبد الحميد | تسبيح الأسماء | منتصر الفقااش |
| الدميرة | د.عبد الرحيم صديق | ثلاث حقائب للسفر | منى برنس |
| جسد فى ظل | عبد التنى فرج | حافة القردوس | نبيل عبد الحميد |
| الفوز للرمالك والتصر للأهل | عبد اللطيف زيدان | ديسمبر الدافئ | هدى جاد |
| ليس هناك ما يبهج | عبد خال | خلف النهاية بقليل | وحيد الطويلة |
| لا أحسد | عبد خال | قرد حمام | يوسف فاخورى |
| صعبدى صُح | د. عزة عزت | | |

شعر ..

أول الريا
رويدا بأخاه الأرض
فضائل حب من العراق
ندلاً من الصمت
من فضول الزمن الذي
تملأ إلى جوار حنة يونسكو
كأنها نهاية الأرض
الألوان ترتعد بشراها
صلاة المروع
دينسا ندادينا
تلف
البحر ، النجوم ، العشب في كف واحدة
كتاب الأمكنة والنوايح
جواثب لغدي
سميرة الماء
رانب الألفه
إضاءة في خيمة الليل
نصف حلم فقط
عطر النغم الأخضر
سراب القمر
إشارات ضبط المكان
أوراق مسافر
إذهب قبل أن أبكى
الغربة والعشق
مشاعر همجية
غربة الصبح
ونس
لبالي العنقاء
العجز البراق بيع أنوار النهر
هذه الروح لى

إبراهيم زولي
إبراهيم زولي
البيسائي وآخرون
درويش الأسويطي
درويش الأسويطي
رشيد الغمري
رفعت سلام
شريف الشافعي
صبرى السيد
طارق الزباد
ظبية خميس
ظبية خميس
عبد العزيز موالى
عصام خميس
د . علاء عبد الهادي
علوان مهدي الجيلاني
على فريد
عماد عبد المحسن
عمر غراب
فاروق خلف
فاروق خلف
فيصل سليم التلاوي
د . لطيفة صالح
مجدى رياض
محسن عامر
محمد الفارس
محمد الحسيني
محمد محسن
نادر ناشد
نادر ناشد

مسرح ..

هذه الليلة الطويلة
اللعبة الأبدية (مسرحية شعرية)
ملكة القرد
د. أحمد صدقي الدجاني
محمد الفارس
محمود عبد الحافظ
هاسن الكتانية
خديات عصر جديد
حصاة الذاكرة
الوقوف على الأمية عند عرب الفاطمية
أحمد الأحمدين
قراءة الغاني في بحر التحولات
أحمد عزت سليم
صد هدم التاريخ وموت الكتانية
أحمد عزت سليم
اللغة والشكل
أمنجد ريان
المثقفون العرب والنزات
ثقافة البدايات
المثل الشعبي بين ليبيا وفلسطين
خليل إبراهيم حسونة
أدب الشباب في ليبيا
العصرية والإرهاب في الأدب الصهيوني
خليل إبراهيم حسونة
أباطيل الفرعونية
مصر الفرعونية
البعد الثالث : نظرات في القصة والرواية
رواء الأدب العربي في السعودية
شعيب عبد الفتاح
الكتابة المشروعة
شوقي عبد الحميد
رحلة الكلمات
د . علي فهمي خثيم
د . علي فهمي خثيم
أعلام من الأدب العالي
علي عبد الفتاح
هيمنجواي حياته وأعماله الأدبية
د . غريال وهبة
رمن الرواية : صوت اللحظة الصاخبة
مجدى إبراهيم
في المرجعية الاجتماعية للفكر والإبداع
محمد الطيب
الحات والتبعية الثقافية
د. مصطفى عبد الغنى
أدب الطفل العربي بين الواقع والمستقبل
ممدوح القديري
الرواية العربية : رسوم وقراءات
نبيل سليمان

بالإضافة إلى : كتب متنوعة : سياسية – قومية – دينية – معارف عامة – تراث – أطفال .
خدمات إعلامية وثقافية (اشتراكات) : ملخصات الكتب – وثائق – النشرة
الدولية – دراسات عربية – معلومات – ملفات صحفية موثقة.

الآراء الواردة في الإصدارات لا تعبر بالضرورة عن آراء بيتها المركز